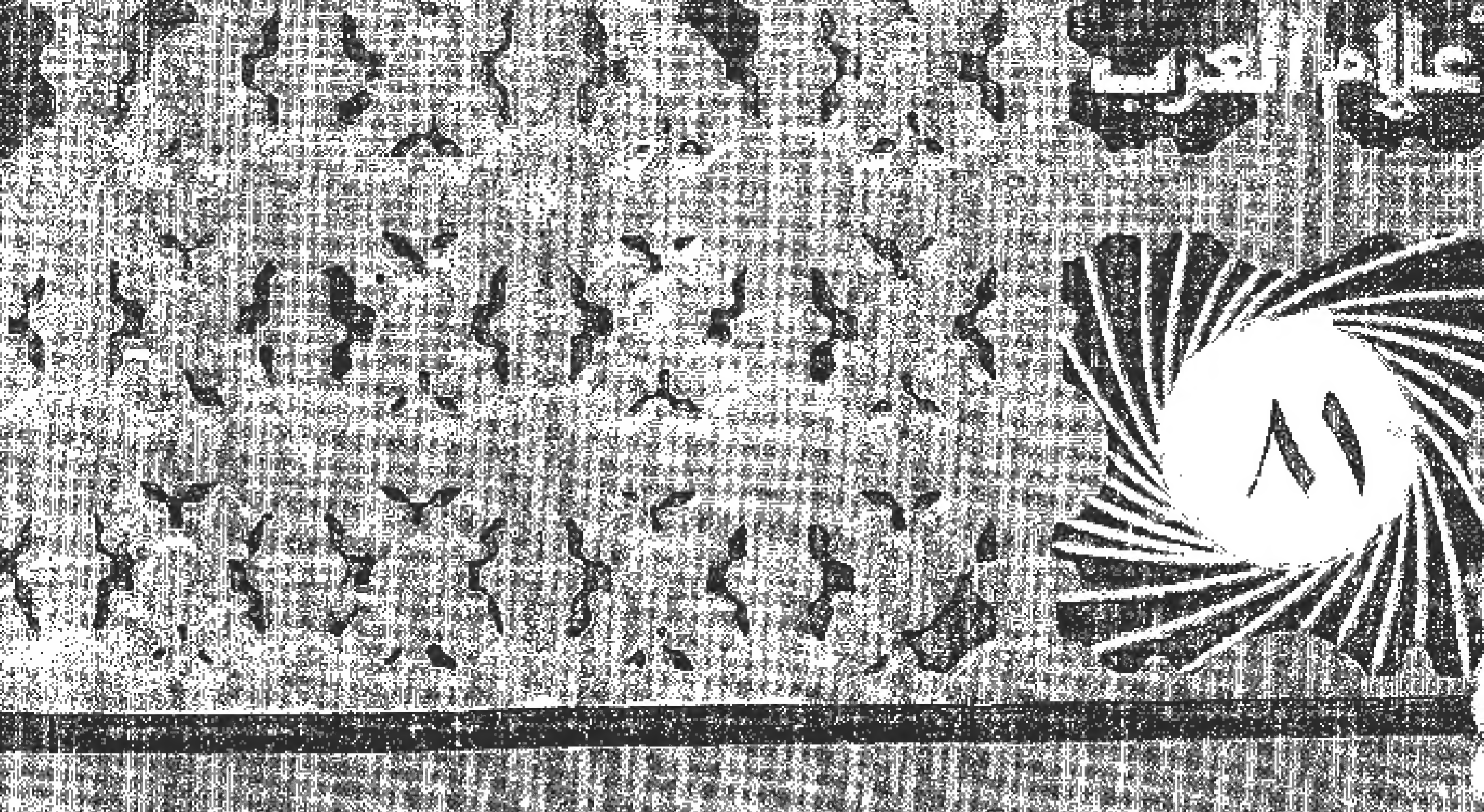


مصطفى صادق الرافعي

تأليف: الدكتور كمال نشأت

دار الكاتب العربي

نوفمبر ١٩٦٨


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أعلام العرب

٨١

مصطفى صادق الرافعي

تأليف: الدكتور كمال نشأت

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
فرع مصر — ١٩٦٨

مقدمة

كان الرافعى ـ رحمه الله ـ من كتاب العربية الذين جروا على نهج عربى مبين تفكيرا وأسلوبا ، وهو حلقة من حلقات تطور الأدب العربى الحديث تمثل التيار التقليدى فى نصاعته وأصالته . وهو تيار كان لا بد من وجوده للوقوف أمام الانكباب العنيف على حضارة الغرب منذ مطالع هذا القرن ، وبذلك تم التوازن فى حياة الأمة .

ولقد اختلفت الآراء فى الرافعى كما تختلف فى أدباء كثيرين ، ولعل هذا الاختلاف دليل على أهميته فى مرحلة من مراحل أدبنا المعاصر ، الا أن الرافعى لم ينل من الدراسة أو الذكرى ما هو جدير به ، ويكفى أن نقول انه لم تقم له حفلة تأبين أو حفلة ذكرى !

ولقد كنت أناقش أستاذى الدكتور شوقى ضيف وأسأله عن علم من أعلام الأدب العربى الحديث ، أكتب عنه دراسة فى هذه السلسلة الناجحة المفيدة ، فعرض على اسم الرافعى فوافقت . وربما كان أساس هذه الموافقة احساسى أن الرافعى كاتب مظلوم مهما اختلفنا فيه وفى أدبه ، فهو الى اليوم لم يلتفت اليه أحد ـ باستثناء سعيد العريان ـ ولم يعن بدراسته دراسة جادة أديب ، ولم تحتفل بذكراه اذاعة أو جماعة أدبية !

ومنذ سنوات اخترت (أبا شادى) ليكون موضوع رسالة الدكتوراه ، وهو شاعر تختلف فيه الآراء كذلك .. وهو كالرافعى أيضا مغبون مظلوم .. فى الوقت الذى أثبتت فيه هذه الدراسة

ـ على الرغم من رداءة كثير من شعره ـ أنه مجدد أصيل وأنه صاحب مدرسة ، ذلك أنه أثر باتجاهاته الشعرية فى عدد كبير من شعراء الشباب ، هم شعراء جمعية أبولو .

ولعلى بكتابتى عن أبى شادى والرافعى أنبه دارسى الأدب الى الاحتفال بالأدباء المنسيين ، فلن تتكامل صورة أدبنا الحديث الا اذا ألقينا الضوء على جميع الوجوه ، الحاضر منها والغائب ، الكلاسيكى منها والمجدد ، وذلك فى موضوعية نزيهة ، حتى تتحقق لهذه الصورة قسمات الصدق .

د . كمال نشأت

الباب الأول

١ ـ حياته

٢ ـ موته

حياته :

ولد الرافعى فى يناير عام ١٨٨٠ فى « بهتيم » من قرى محافظة القليوبية فى منزل جده الشيخ الطوخى الذى كان يتاجر بين مصر والشام . والرافعى سورى الأصل أبا وأما ، وقد اشتغل أبوه الشيخ عبد الرازق الرافعى بالقضاء الشرعى مثل اخوته جميعا وكانوا عشرة ، وقد انتهت اليه رئاسة المحكمة الشرعية فى طنطا ، حيث أقام بقية عمره ، وفيها مات ودفن ، ومن هنا كانت (طنطا) مقر الرافعى وأخوته . ولقد كان الاشتغال بالقضاء الشرعى مهنة أفراد الأسرة ، حتى أصبح اسم الرافعى مرادفا للعلم والمكانة الأدبية . وأول من قدم مصر من هذه الأسرة الشيخ محمد الطاهر الرافعى وذلك فى عام ١٢٤٣ هـ ، وقد ماتت ابنته وابنه ، وبموتهما انتهى نسبه ، الا أنه كان أول من شق طريق الهجرة الى مصر ، فتبعه أشقاؤه وأبناء عمومته ، فعلموا مذهب أبى حنيفة ، وتولوا مناصب القضاء الشرعى حتى كاد هذا القضاء يكون مقصورا عليهم ، الأمر الذى لاحظه اللورد كرومر ، فذكره فى أحد تقاريره الى وزارة الخارجية الانجليزية . وأسرة الرافعى معروفة بكثرة الولد ، فليس هناك رافعى الا وله ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك . ويعلل مصطفى صادق الرافعى نفسه لقب (الرافعى) فيقول : ان شيخا من آبائه عرف بالعلم والاجتهاد فى الفقه سماه الناس بالرافعى تشبيها له بالامام الشافعى المعروف محمود الرافعى .

وقد تهيأت للرافعى نشأة علمية دينية بمولده فردا فى أسرة تأخذ بالثقافة الدينية ، وليس من شك فى أن هذه النشأة قد طبعته بطابعها فى السلوك الاجتماعى وفى مناحى التفكير وأسلوب التعبير ، فالرافعى يتخذ فى بيته امرأة حافظة للقرآن تتلو ما تيسر منه فى منزله كل يوم ، وتعلم بناته بعضا منه ، وهو على صلة روحية بالسيد البدوى ، فاذا صلى بمسجده ، جلس تحت قبته ساعات خاشعا مطرقا يتمتم الدعوات ويتلو القرآن . وكان الرافعى يؤمن بكرامات السيد البدوى ايمانا شديدا ، وله فيه أماديح وتوسلات ، ويقال ان السيد البدوى حينما نزل طنطا أقام فى الدار التى تعيش فيها أسرة الرافعى ، وهى دار تقع فى حارة ضيقة ملتوية يطلق عليها حارة (سيدى سالم) . فاذا جمعنا الى عامل الوراثة والمناخ الاجتماعى والدينى نمط الثقافة الخاصة التى استعلنت بها أسرة الرافعى ، استطعنا أن ندرك اللون الذى سيعرف به الرافعى حينما يستوى عوده وتنضج ثماره ، وعلى الرغم من أن الرافعى نال الشهادة الابتدائية — وهى كل ما حصل عليه من الاجازات الدراسية — ومعرفته معرفة لا بأس بها باللغة الفرنسية ، فان أثر ثقافة أسرته والمناخ النفسى والاجتماعى الذى نشأ فيه ، جعله أقرب الى مزاج الأدباء المطلعين على التراث العربى دون غيره ، وقد أعان على تأصيل هذا المزاج قراءاته الباكرة فيما ضمته مكتبة والده من كتب دينية فى الأغلب الأعم ، وقد استمع الرافعى فى سن العاشرة أو بعد ذلك بسنة أو بسنتين الى والده ، وحفظ شيئا من القرآن ، وذلك قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية فى دمنهور ثم فى المنصورة . كل هذا مجتمعا يحدد لنا المناخ الذى عاش فيه الرافعى ، ومن هنا ندرك تطلعه الى أن يكون كاتب العرب والاسلام .

ولعل صفة الدأب والطموح التى عرفت عن والده ، هى نفسها الصفة التى ورثها ، والتى أعانته على أن يحقق ذاته ككاتب مرموق ،

فقد كان أبوه رئيسا للمحكمة الشرعية فى أقاليم كثيرة ، ولم يكن قد حصل على شهادة العالمية حتى عين فى محكمة طنطا ، ولسبب ما ثار خلاف علمى بينه وبين بعض العلماء فى شأن من أمور الدين ، فتقدم لامتحان هذه الشهادة وظفر بها حتى يحقق لنفسه مستوى يكون قادرا فيه على المصاولة دون أن يحس بالدونية بالنسبة الى مناقشيه . وهذا ما حدث لابنه مصطفى تماما ، فقد أصابته حمى تركت وقرا باحدى أذنيه ، ولم ينفع العلاج على كثرة التردد على الأطباء ، وانتقل الوقر الى أذنه الثانية ، وفى سن الثلاثين أصبح مصطفى الرافعى فى عزلة عن عالم الأصوات ، وهو منذ ابتداء هذه العلة ، عازف عن مخالطة الناس ، يحمل هم مرضه الخطير ، فكان الكتاب صديقه وسميره ، وبذلك انقطع الى الاطلاع ، ليحقق لنفسه ثقافة لازمة لأديب كان يرجو أن يكون ، وقد استطاع أن يصل الى مبتغاه ، وكأنه كان يقول فى نفسه ـ كما يشير سعيد العريان ـ (اذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى فليسمعوا منى ..) .

انصرف الرافعى الى التراث الأدبى العربى يقرأ ويفكر بل ويحفظ ، فقد استظهر كتاب (نهج البلاغة) أثناء رحلته من (طنطا) الى (طلخا) ذهابا وعودة حينما عين كاتبا بالمحكمة ، أما اللغة الفرنسية فقد أهملها ، وآفة العلم الترك كما يقولون ، وان ظل بعد ذلك نادما على هذا الاهمال ، يؤمل أن يعود اليها اذا انفسح له الوقت ، ولكن لم يتح له تحقيق أمنيته هذه .

كانت علة الرافعى سدا وقف بينه وبين الناس ، فانكب على كتب التراث قارئا مستوعبا ، ولعل هذا الانقطاع عنهم هو الذى جعله على الرغم من ولادته فى مصر لا يجيد العامية المصرية ، وظلت لهجته أقرب الى اللهجة الشامية فى الوقت الذى يتحدث بها أبناؤه واخوته ، وكثيرا ما كان الرافعى يسأل العريان عن معنى مثل

من الأمثال الشعبية ، أو لفظة من الألفاظ الدارجة وكان يقول له : « فلتكن أنت لى قاموس العامية » ..

وقد استطاع الرافعى بانكبابه على القراءة ثمانى ساعات كل يوم ، أن يصـــل الى قدر من الثقافة العربية أعانه على الابداع وأفسح له مكانا بين كبار الكتاب .

عين الرافعى عام ١٨٩٩ كاتبا بمحكمة طلخا الشرعية ، ونقل منها الى محكمة ايتاى البارود ثم الى محكمة طنطا الشرعية ، ثم نقل الى المحكمة الأهلية فى طنطا حيث ظل الى أن توفاه الله .

ولعل أمر نقله الى المنصورة الذى لم يتم كان هما من هموم الوظيفة ، ونستطيع أن ندرك أثره فى نفسه ، كما نستنتج وضع الأديب فى المجتمع على أيامه ، فى رسالة صديقه محمود أبى رية التى يقول فيها :

« ان أمر النقل الى المنصـــورة كان لى هما من الهموم ، لأنى لا استطيع نقل البيت والأولاد فى مدارسهم ، وقد دفعنـــا لهم الأقساط المدرسية فضلا عن أن مصالحى كلها هنا . ولهذا سعيت فى ابطال هذا النقل ، وأرجو أن ييسر الله ذلك ، ويتم الأمر قريبا وأبقى فى محلى . فانى ان انتقلت الى المنصورة اضطررت للاشتراك فى سكة الحديد ، والرجوع الى طنطا كل يوم ، فيذهب الوقت ولا أستطيع أن أكتب شيئا ، ويطوى كتاب الأحزان ، فاللهم سهل الأمر واكفنى هذا الشر . وقد كان النقل فى الأصل الى اسـيوط ولكن بعض الأصدقاء فى الوزارة كان حاضرا ، فتوسط بمروءته ونفعنى الله به فجعلوا النقل الى المنصورة . لقد فهمت يا أبا رية ضرر هذا النقل ، فألح فى الدعاء الى الله تعالى فى ابطاله وبقائى بمحلى هنا .. نفعنا الله بدعائك .. » .

كان الرافعى دقيقا فى عمله ، يقوم بتقدير رسوم القضـــايا والعقود ، حتى كان بعض الموظفين يستطلعون رايه فى هذا الشأن ،

وكان ينظر الى وظيفته المتواضعة باعتبارها مصدر رزق ، وهو فى وظيفته هـذه معتمد على جاه أسرته الأدبى ، فكلهم يعملون فى القضاء الشرعى ، ولهم فى هذا المجال صيت ، ولذلك كان ــ على قيامه بواجبات وظيفته خير قيام ــ غير حريص على المواعيد الرسمية ، فقد يحضر فى التاسعة أو العاشرة ، فيؤدى عمله حتى اذا فرغ منه خرج للجلوس مع صديق فى متجره أو أديب فى مقهى ، ويعود ليكمل عمله قبل ميعاد أنتهاء العمل الرسمى . وكان ذلك يغضب زملاءه من الموظفين حتى قالوا عنه انه (عمدة المحكمة) .

ولعل احساس الرافعى بتواضع وظيفته مع ذيوع اسمه ومكانته الأدبية هو الذى جعله شديد الحساسية فيما يظنه ماسا بكرامته ، فلم يعرف عنه انه هرع الى رئيس مهنئا مع بقية الموظفين ، والذى كان يحدث أن الرئيس هو الذى كان يزوره فى حجرته . ويقال ان مفتشا جاء ليراجع عمله ، فكان عليه أن يذهب الى الرافعى ، ويحكى سعيد العريان : انه ذهب اليه مرة فوجد أحد المفتشين جالسا الى جانب المكتب ، فهم العريان بالانصراف ، ولكن الرافعى شده من يده وقال له اجلس . وحدث أن وجه المفتش سؤالا الى الرافعى ، فما كان منه الا أن نظر الى العريان وقال :

(من فضلك ، تول عنى جوابه ، فانه فى حاجة الى معلم مثلك) ..
وقد حدث مرة أن نقل الى المحكمة رئيس ذو سطوة ، فلم يذهب اليه الرافعى مع بقية موظفى المحكمة لتهنئته ، ولما سأل عنه قيل انه غير موجود ، وأثار الموظفون من زملائه حفيظة الرئيس ضد الرافعى ، فكتب كتابا الى وزارة الحقانية ، يطلب فيه اخراجه من الخدمة لأنه لا يحافظ على مواعيد العمل الرسمية ، ولا يحسن التفاهم مع الناس ، فانتدبت الوزارة مفتشا للتحقيق ، وتصادف أن كان هذا المفتش ، الشاعر الكاتب حفنى ناصف ، وكان تقريره أن للرافعى حقا على الأمة ككاتب ، وأن ما يسرى على موظفى

الدولة من قوانين روتينية يجب ألا يقيـــده ، ما دام يؤدى عمله على خير وجه .

وشرع هذا التقرير للرافعى حريةالخروج والدخول ، فما كان أحد بمستطيع أن يؤاخذه من هذه الناحية . وأرسى الرافعى جذوره فى طنطا ، ومن هذه العاصمة الاقليمية الصغيرة كان يرسل مقالاته الى الجرائد والمجلات ، فيسير أدبه فى آفاق العروبة ، ويلمع اسمه ، ولكنه مع ذلك ظل كاتبا فى محكمة اقليم ، لا يتجاوز راتبه بضعة وعشرين جنيها ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة فى وظائف الحكومة .

وفى سن الرابعة والعشرين تزوج الرافعى مصرية هى أخت الصحفى الكاتب عبد الرحمن البرقوقى ، ويحكى الرافعى قصة زواجه فيقول : انه كان صديقا لعبد الرحمن ، وفى يوم من الأيام — وكانا يتناقشان فى أمر الزواج عامة — قال الرافعى لصديقه : من لى يا أخى بالزوجة التى أريد ؟ فكان جواب صديقه عبد الرحمن . عندى من تريد .. فقال الرافعى : من ؟ فقال عبد الرحمن : أختى . ففرح الرافعى ومد يده الى يد عبد الرحمن وقرءا الفاتحة ، وقد دام زواجه ثلاثا وثلاثين سنة ، لم يحدث فيهـــا ما يعكر صـــفو الزوجين الا ما حدث من أمر حجز بعض أشقائها حقها فى ميراث تركةأبوها ، فحدثته نفسه أن يطلقها ، وفاتح صديقهجورجابراهيم فى هذه المسألة ، فراجعه وقال له : وما ذنبها .. تريد أن تحاسبها على ما اقترف أخوها ؟ فقال له الرافعى : أحسبتنى أفعلها ؟

وقد هيأت هذه الزوجة الكريمة للرافعى الجو الذى يحتاج اليه الأديب ، فما كان هناك شىء يشغل باله من أمور البيت ، فانقطع لكتبه وأوراقه وقلمه .

ولقد عاش الرافعى عيشة كفاف ، فقد كان كثير الولد ، محدود الراتب الا من بضعة جنيهات فوق مرتبه تصـــله عن طريق مجلة

الرسالة حينما كان يكتب فيها ، أو من بيع كتبه للموظفين والمحامين الذين كانوا يقصدونه لعمل رسمى . ولعل شكواه الى صديقه محمود أبى رية فى بعض رسائله اليه تبين ضيقه بهذه المعيشة ، فهو يقول فى احداها : « وحسبك أن المطلوب فى هذا الشهر للمدارس وتاجر القماش ٢٠ جنيها » .. ويخبره فى رسالة أخرى أن له فتاة نالت الشهادة الابتدائية وأراد لها دخول الثانوى ومصاريفه ٢٠ جنيها ، فلم يستطع أداءها ، فاضطر للاكتفاء بما تعلمت ، لأن الثانوية لا فائدة لها الا أنها طريق للتعليم العالى ، وينهى الرسالة شاكيا أنه يصرف على ثلاثة فى التعليم الثانوى .

ولقد ظل الرافعى على الرغم من اهتمامه بالرياضة البدنية صاحب جسد واهن ، يشكو المرض وعدم القدرة على القراءة والكتابة كما يريد ، وهى شكوى رددها كثيرا فى رسائله الى صديقه أبى رية ، يقول فى احداها : « والذى يغيظنى أنى كلما اشتغلت بالكتابة ليلا ، ابتليت بالأرق ، فهذا شىء جديد لم يكن من قبل ، ومقالة شوقى أخذت أربعة أيام فى قراءة ديوانه ، وأربعة أيام فى الكتابة ، ويومين فى التبييض ، وفى طول هذه المدة لم أستطع أن أنام أكثر من خمس ساعات فى اليوم ، وأحيانا أربع أو ثلاث .. » . الا أن صمم أذنيه كان همه الشاغل الى آخر حياته ، فقد كان يؤمن أن معجزة ما ستحدث لتعيد أذنيه الى حالتهما الطبيعية ، وهو يحكى لأبى رية فى رسالة أن شفاء أذنيه قد قرب ، وأنه رأى السيد البدوى فى المنام وبشره بالشفاء ، ويطلب من أبى رية أن يذهب الى جامع السيد ويتوضأ ويصلى بعض ركعات ، ثم يقرأ ما تيسر من القرآن ، على نية أن يعجل الله بشفائه « فان دعاء المؤمن لا يعدله شىء فى سرعة الاجابة مع خلوص النية .. » .

ويحكى أبو رية أنه كان جالسا معه فى مقهى ، وكان بجوارهما اثنان يلعبان النرد فقال الرافعى له : « لقد سمعت خفق فص هذا النرد .. » ، كما طلب منه يوما أن يتوسط لدى طالب مصرى

يدرس فى ألمانيا ، ليرسل اليه سماعة كهربائية بعد أن علم بوجودها وأنها تعين على السمع . ويذكر سعيد العريان أنه كان جالسا يتحدث اليه ، فاذا به يقول له : « ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعودة قد حانت فأسمع ما تقول » . والرافعى رجل يؤمن بجدوى الدعاء كمسلم ، ولذلك فهو يطلب من صديقه أبى رية فى أغلب رسائله أن يدعو الله له « ولعلك تواصل الدعاء لنا فيكون بين العلاجات ان شاء الله » ، بل هو يطلب الدعاء من قارىء فى جدة أبدى اعجابه بتفسيره آية (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ، فقد كتب اليه يلتمس منه الدعاء .

وهو يؤمن بتأثير الأرواح ، يقول : « من أسبوع أشعر بضيق فى النفس ، يزهدنى فى كل شىء ، كأن هناك أرواحا لها تأثير .. » وهو يؤمن بالحلم ويستبشر به ويقول فى رسالة انه رأى « انه مع السيد جمال الدين الأفغانى ، ثم جاء الشيخ محمد عبده ، وجلس أمامهما وأخذ السيد يملى عليه والشيخ يكتب ، وكانوا هم الثلاثة على مائدة واحدة ، فاستبشر بهذه الرؤيا .. » . كما كان يؤمن بالحسد ، فهو فى بعض رسائله يقول : « لقد نجح سامى ولكن أخاه تخلف ، فالحمد لله أن رد عنا أعين الناس وسمومها .. » ، ويقول : « ولعل نظرات الناس قد أصابتنا بعد ظهور الكتاب الجديد » وهو يتشاءم أيضا كما رأيناه يستبشر ، فهو يقول أن قصته (عاصفة القدر) جرت عليه كثيرا من الاضطراب . لقد كان الرافعى كما يقول العريان « يؤمن بالغيب ايمانا عميقا لا ينفذ اليه الشك ، وكان له عن الشياطين والملائكة ، والوحى والالهام ، وعن تجاوب الأرواح فى اليقظة والنوم ، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل » . ويحكى العريان بعض ذكرياته فيما يتصل بهذه الناحية ، فيقول أن الرافعى أخبره أنه استطاع استحضار روح أخيه محمد كامل الرافعى ، وكان بينهما حديث ، وقد حاول الرافعى أن يعلمه استحضار الأرواح ولكنه لم يتعلم !

ويذكر أنه كان يحفظ كثيرا من الأدعية والدعوات تنفع فى شئون مختلفات . ويحكى أن الرافعى حينما كان يحب (مى) ذهب الى أحد العرافين الذى كتب له تميمة علقها فى سارية على سطح منزله ، الا أن أشياء غريبة مفزعة حدثت له ولأهل بيته فى اليومين اللذين ترك التميمة فيهما معلقة ، ولذلك حلها من مكانها .

ولقد كان الرافعى متشددا فيما يمس دينه ، يحكى أبو رية أنه كتب فى احدى رسائله اليه اسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) دون أن يتبعه بالصلاة عليه ، فكتب الرافعى اليه يعاتبه عتابا شديدا معتبرا ما فعله (سوء أدب لا يقبله من أحد ، ولا يقر أحدا عليه ..) . وكان — كما يذكر العريان — صاحب نزوات بشرية ، تعقبها التوبة والندم ، على الرغم من تدينه ، فقد كان اذا مرت أمامه امرأة جميلة فتابعها بعينيه ، أو سمع حديثا عن غائب راح يستغفر ويقول : هذا من عمل الشيطان !

كما يذكر أن خطابا وصله من آنسة بدمشق ، ومعه صورتها مهداة اليه ، وكانت تبثه اعجابها وحبها ، وتقول انها وحيدة فى حاجة الى رجل ! فما كان منه الا أن وضع الصورة فى الغلاف وهو يقول : « أعوذ بالله من الشيطان » !

ولعل تدينه ومحاسبته نفسه على كل صغيرة وكبيرة لا يتضحان الا حينما نعرف أنه حينما أحب (مى) تحرج من هذا الحب ، وكأنه قال لنفسه : ما لى ولهذا الحب .. ان لدى زوجة ليس من حقى أن أمنح غيرها نظرة أو ابتسامة ، فماذا يكون من أمرى أمام الله ساعة الحساب .. وفاتح زوجه بقصة حبه ، معترفا انه حب روحى فأذنت له ، وكانت تقرأ رسائلهما .

كانت أمنية الرافعى العزيزة أن يتفرغ للأدب بعيدا عن أعباء الوظيفة الحكومية ، ويحكى فى احدى رسائله أن طلبة المعهد الأحمدى فى طنطا — كما روى له أحدهم — فكروا فى أن يقوموا

بمظاهرة يطالبون فيها المسئولين بتفرغ الرافعى للأدب ، ثم يقول ان له نحو تسعين طالبا من المعجبين بأدبه يشترون كتبه . وقد ألحت عليه فكرة التفرغ للأدب حتى فكر فى أن يطلب احالته الى المعاش ، ولكن ضآلة معاشه وقفت بينه وبين تنفيذها .

وقد كان الرافعى عزيز النفس ، أبى الروح ، وما يحكى من حياته دليلا على ذلك كثير ، ويكفى أن نذكر هنا أن صديقه أبا رية عرض عليه أن يتفاوض مع المسئولين عن مكتبة البيان لطبع كتابه « المساكين » ، وكأنما أحس الرافعى أن هذا العرض على بساطته — وكان أغلب المؤلفين على أيامه يطبعون كتبهم على نفقتهم الا فيما ندر — يمس كرامته ، فكتب اليه يقول : « انى فى كتابى الآخر انما اعتذرت عن عدم طبع كل كتبى لأنى لا أملأ السوق ويدى خالية لا أستطيع أن أملأها ، وفرق بين عدم امتلاء اليد وبين ضيقها ، فانى والحمد لله فى يسر وان لم أكن فى سعة .. » . ويدل على ذلك أيضا ما حكاه كتابة الى نفس الصديق من أن قصيدته « ويلسون » نشرها المقتطف بعد أن شوهها ، فقد اقتطعوا منها ٢٦ بيتا بحجة الرقابة ، فكتب للدكتور صروف فى ذلك كتابة أغضبته ، فرد عليه ردا فاترا ، فصمم على ألا ينشر شيئا فى المقتطف . الا أنه مع عزة نفسه هذه واباثه أباح لنفسه الاشتراك فى المسابقات الأدبية ، والمسابقة بطبيعتها باب مفتوح يدخله كل من هب ودب من الأدباء والمتأدبين ، والأديب المرموق المكانة أجل من الاشتراك فى المسابقات ، وهو معرض الى أن يتقدم عليه أحد تلاميذه ، لأن المسابقات قد تقوم على المجاملات والهوى ، وقد حدث أن اشترك فى مسابقة للقصة أقامتها مجلة المقتطف فرفضتها اللجنة الفاحصة ، لأن القصة تعوزها لمسة الفن ، ولأن المؤلف ظاهر الشخصية فيها بمواعظه وخطبه (١) . وكان ألما عظيما عاناه الرافعى ،

---

(١) هى قصة « عاصفة القدر » المنشورة فى « وحى القلم » وكانت المسابقة عام ١٩٢٥ .

وان أرجع فشل القصة الى (مى) التى كانت عضوا بلجنة التحكيم .
وفى رسالة من رسائله يعلق على ذلك قائلا : « لقد كنت فى حيرة شديدة ، ولكن بلغنى أن اللجنة ميزت القصة وأثنت عليها ، وكانت (مى) أكثر الأعضاء مدحا وتقريظا ، الا أنهم رأوا أن نسق الرواية لا يلائم ما نص عليــــه الكتـــــاب الأوربيون من طـــرق القصص فأبعدوها » . ويتحدث بعد ذلك فيقول : انه كان فى مقدور (مى) أن تجعلها القصة الأولى ، ولكنها شاءت الكيد له .

ان الرافعى لم يرحل خارج القطر الا مرة أو مرتين الى الشام ، وكان يتمنى أن يزور أوروبا ولكن قدرته المالية قعدت به ، وكان من أمره فى هذه الناحية ، أنه استعاض عن السفر بالمشـــاهدة ، فكان يذهب الى السينما قائلا انه « سيرحل خارج القطر » . وقد طيبت خاطره تذكرة السفر الدائمة (أبونيه) التى أعطيت له كشاعر للملك ، فقد يسرت له التنقل داخل مصر بالمجان ، ويحكى أنه كان يكتب قصيدة من مدائحه الملكية ، فركب القطـــــار الذاهب الى بورسعيد حيث أتم القصيدة ثم عاد .

ويبدو أن الرافعى لاعتداده بنفسه وبأدبه لم يستطع أن يقتنع بالأسباب التى ذكرتها اللجنة تعليلا لأبعاد قصته ، ويدلنا على ذلك أيضا اتهامه (مى) مرة ثانية لأنها اقترحت موضوع مقال هو (النثر العربى فى خمسين سنة) على أن يكون كاتبه طه حسين ويقول ان عنوان هذا المقال هو نفس عنوان مقاله (الشعر العربى فى خمسين سنة) .

الى هذا الحد كان الرافعى يطاوع هواجسه وتخيلاته ، فقد كان ينظر الى الأمور بمنطق الاحساس الشخصى الذى لا يسنده مبرر يقبله العقل .

على أنه ككل أديب كان يسعى الى كلمة مدح تقال فيه وفى أدبه ، ولقد طار فرحا حينما قرظ سعد زغلول كتابا له قال فيه :

« كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » . يبين هذا الفرح كما يبين ذكاءه فى الاحتيال على كلمة تقريظ أخرى من سعد زغلول قوله فى احدى رسائله : « أما تقريظ سعد باشا فهو غاية الغايات ، وقد قيل لى أنه لم يكتب خيرا من هذا ، ولعل الله ينفعنا به ، ولم أقابله ، ولكنى أرسلت اليه الكتاب فى البريد ، وهو رجل بليغ ذكى ، همته القراءة والمطالعة ، فسرنى أن يكون ذلك تأثير الكتاب فيه ، اذ ليس ما يضطره الى مثـــل هذا التقريظ الا اعجابه بالكتاب . وسنرسل له الكتاب الآخر ان شاء الله فى البريد أيضا ، لأنى اذا قدمته بنفسى شكرنى ولم يكتب شيئا .. » .

ولقد كان الرافعى — كأغلب الفنانين — مفتونا بنفسه ، معتزا بأدبه ، يرى أنه الكاتب الذى لا يبارى ، وانه نسيج وحده براعة أسلوب وجودة سبك ، الا أن هذه الخصيصة النفسية قد خفيت عند المجاهرة العامة واستعلنت فى رسائله وحديثه الى أصدقائه المقربين ، ورسائل الرافعى الى أبى رية مليئة بهذه الفتنــة التى تصل الى حد الغرور ، ولكن يخفف من وقعها انها كانت تكتب الى صديق ، ولم يكن الرافعى يعلم انها ستنشر بعد موته فى كتاب . من ذلك قوله فى احدى هذه الرسائل أنه أرقى من برجسون لأن أفكارا له فى مقدمة كتابه (المساكين) طابقت بعض أفكار هـــذا الفيلسوف . أما كتابه (أوراق الورد) فقد كان الرافعى مفتونا به ، فهو فى رسالة أخرى يقول : « انه لا يوجد ما يفوقه فى اللغات الأوربية الا قطعا وتفاريق » ، كما يقول عنه أيضا فى رسالة أخرى : « لقد قرأت (أوراق الورد) هذا الأسبوع ، بعد أن فرغت من قراءة لشكسبير وأخرى للامارتين ، وفى ظنى أن (أوراق الورد) يرجح عليهما بكثير فى معانيه وبيانه ولكن هو الحظ » ..

وقد أخذت عليه الدكتورة نعمات فؤاد فى كتابها (دراسة فى أدب الرافعى) هذا الغرور ، وفاتها — كما ذكرت سابقا — أن هذا الغرور لم يظهر الا فى رسائله الخاصة التى يجب ألا يحاسب عليها ،

والرسائل الخاصة هى المجال الذى ينفض الانسان فيه كل ما بنفسه دون مواربة ، وبدهى أن الرافعى ساعة كتابة احدى هذه الرسائل لم يكن يعلم الغيب ، من أنه سيموت وأن صديقه الذى يراسله سينشر رسائله فى كتاب ، على أننا ان أخذنا عليه تطرفه فى تقدير نفسه وأدبه ، يجب أن نضع فى اعتبارنا أن هـذا التطرف خصلة نفسية عرفت عن الأدباء والفنانين عامة ، ولكن الذى يبدو أن الدكتورة نعمات فؤاد كتبت كتابها وفى نفسها شيء من التحامل على الرافعى اخلاصا منها للعقاد ، وذلك على الرغم من قولها انها درسته دراسة موضوعية والا ما قولها فيما كتبته عن أناس غضبوا حينما صدرت طبعة كتابها الأولى فقالت عنهم فى مقدمة الطبعة الثانية : « عز عليهم أن ينقد الرافعى نقدا موضوعيا ، حين قل عند أصحاب النخوة هؤلاء تطاوله على الصفوة الأعلام من رواد الحركة الفكرية والأدبية عندنا ، لطفى السيد والعقاد وطه حسين .. » .

أليس معنى هذا الكلام أن الدكتورة منذ الصفحة الأولى فى مقدمة دراستها بعيدة عن الموضوعية ؟

انها تقول بعبارة صريحة : اننى سأنتصف لهولاء الأعلام وآخذ حقهم من الرافعى الذى تطاول عليهم !

على أن سعيد العريان ــ فيما يمس مسألة غرور الرافعى ــ قد حسم القضية بروح موضوعية عادلة قبل أن تتناولها الدكتورة ، ولا شك أنها قبل تأليفها كتابها قد قرأت قوله فى (حياة الرافعى) :

« جلست اليه ذات مساء نتحدث حديثنا ، فقال وهو يدفع الى طائفة من رسائل القراء : اقرأ يا شيخ سعيد .. أرأيت مثل هذا ؟ أيحق لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب فى موضوعه ؟ أيملك كاتب أن يرد على رأيا من الرأى ؟ ومضى فى طرائق من مثل هذا القول عن نفسه ، وعن طائفة من خصومه ، فعرفت أنه فى لحظة من تلك اللحظات التى تنتبه فيها النفس البشرية الى

طبيعتها ، فتؤمن بنفسها من دون كل شيء مما خلق الله ، ايمانا هو بعض الضعف الانسانى فى طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة فى النابغين من أهل الآداب والفنون ، ذلك الايمان الذى نسميه أحيانا صلفا وعنجهية وكبرياء ، ونسميه فى النابهين والعظماء ثقة بالنفس وشعورا بالقوة » ..

على أن تحامل الدكتورة الواضح لا يقتصر على الاشارة السابقة التى تضع منهج الدراسة فى الضوء الصريح ، فان ما بالكتاب يثير كثيرا من النقاش ، ولقد مات الرافعى وانتهى أمره ، وما عاد أحد يذكره بخير أو بشر ، كأن الرجل لم يعش كاتبا مرموقا بيننا ، ولكننى وأنا فى مجال دراسته لا أستطيع ان أغفل مناقشة الدكتورة نعمات فى كثير مما ذهبت اليه انصافا للرجل والحقيقة والتاريخ .

فالدكتورة تدلل من واقع رسائله الخاصة بعد أن استنفدت ما يقرب من ست صفحات ، انه كان فقيرا لتصل الى هذه النتيجة التى تحددها جملتها (مرض وفقر .. فلا غرابة أن كان الرجل ساخطا متبرما) ثم تربط بين هذا السخط وبين ما أعلنه فى رسائله من ضيق بالبيئة وبأهلها ، ومن ضيعة الأديب بينهم ، وتستنتج من هذه الصيحات البريئة التى كان يعلنها من قلة اهتمام المصريين بالأدب ، وفقر الأديب فى البيئات الشرقية ، اتهامات ظالمة ، فترجع ذلك الى أنه غير مصرى لا يدين لمصر بولاء ، وتنقل مثل قولته فى لحظة ضيق :

« أظن أن هذه البلاد فى حاجة الى رجل يرصد نفسه وحياته لبيان الغلطات ، ويعيش دائما عدوا مكروها فى سبيل الله ، كما كان المرحوم أمين بك الرافعى . ومن الذى يقدر على هذا فى شعب لا يكافىء ولا يميز .. » ولست أرى فى هذا الكلام وامثاله مما قاله الرافعى أو غـــير الرافعى الا بعض ما نقوله نحن فى بعض أوقات سخطنا ، عندما نقارن بين حالنا وحال غيرنا ، وبخاصة فى الوقت

الذى عاش فيه الرافعى ، فقد كان الفساد فى كل مكان ، ونفوس الغيورين حزينة لما يجابهها من مظاهر هذا الفساد فى الحياة المصرية كلها ، فاذا كانت هذه الصيحات الغاضبة لم يفصح عنها الا فى رسائل خاصة .. فما وجه العجب والخطأ ؟ أفى استطاعتنا أن نرمى حافظ ابراهيم بانعدام الوطنية مثلما رمت الدكتورة مصطفى الرافعى ، لأنه قال نفس ما قاله الرافعى فى بيتيه المشهورين :

وما أنت يا مصر دار الأديب   وما أنت بالبلد الطيب

وكم فيك يا مصر من كاتب   أقال اليراع ولم يكتب

أيحق لنا جريا على سنة الدكتورة أن نرمى حافظ ابراهيم بانعدام الوطنية لأنه قال هذين البيتين فى لحظة سخط ؟

ومن هنا كان حكمها المتعسف حين قالت ان الرافعى غير مصرى وهو « وان استوطن مصر ، فليست من طبيعة الأشياء أن يكون هواه خالصا معها .. » ولست أدرى لماذا لا يكون ــ منطقيا ــ من طبيعة الأشياء ألا يكون هواه خالصا معها وهو مولود فيها ؟ الا تقف فى صف الرافعى أناشيده الوطنية التى رددتها أجيال من الطلبة المصريين ومنهم الدكتورة نعمات كما تعترف فى كتابها ؟ الا يقف فى صفه دفاعه عن العروبة والاسلام واللغة العربية وكان من أبرز الكتاب فى هذا الاتجاه ان لم يبزهم جميعا ؟

ومن الظلم البين أيضا تدليلها على ما ذهبت اليه من اعتمادها على ما قاله فى احدى رسائله ، من أنه أرسل ولده الى جامعة بيروت لا الى الجامعة المصرية .. تقول : « وقد مر بنا كيف اتجه الرافعى الى جامعة بيروت منهلا للعلم يرده ولده متجاهلا الجامعة المصرية ، وكانت قد قام لها بناء ، وهى وقتئذ جديرة بالتشجيع العلمى ، ولكن حنين الرافعى الى موطنه الأصلى دفعه الى هذا المظهر من مظاهر الاعتزاز بالأوطان .. » .

تقول الدكتورة هذا وهى تعلم أن الرافعى قد برر فى نفس رسالته التى اعتمدت الدكتورة عليها تفضيله تعليم ابنه فى بيروت بأنه يخاف على أخلاق أولاده من أوروبا ، وأن الطب فى بيروت أكثر تقدما ، والذى حدث فعلا أنه أرسل ولده محمدا الى فرنسا لا الى بيروت حيث تخرج طبيبا !

ويبدو هنا سؤال واجب يتصــل بمنطق الحيدة البعيدة عن التحامل وهو : متى كان الآباء وهم يختــارون طريق المســتقبل لأبنائهم يتركون جامعة هم يوقنون أن علم الطب فيها أكثر تقدما لمجرد التشجيع العملى لجامعة ناشئة ؟ واذا صح كلام الدكتورة ، فما رأيها فى الآباء المصريين ـ وهم يعدون بالآلاف ـ المعاصرين للرافعى وغير المعاصرين الذين يرسلون أبناءهم ليتعلموا فى أوروبا دون جامعاتنا ؟ وما رأيها فى المصريين الذين ينتقون ـ وهم مقيمون فى مصر هم وأبناؤهم ـ المدارس الأجنبية ليتعلم فيها هؤلاء الأبناء ؟

أنطعن فى هؤلاء جميعا ونقول انهم لا يدينون بالولاء لوطنهم ؟ وتروح الكاتبة بعد ذلك تدلل على مرضه ـ من واقع شكاواه فى رسائله الخاصة حتى تملأ عشر صفحات من كتابها لتصل الى أن الرجل كان مريضا (وهى حقيقة بسيطة معروفة) ثم تربط بين مرضــه وغموض أســلوبه دون دليل علمى ، والربط بين المرض والانتاج الأدبى أو الفنى عامة لا يؤخذ بهذه البساطة ، فان كثيرا من الفنانين والأدباء الكبار أمثال ديستوفسكى وكافكا وبيتهوفن وغيرهم كانوا يعــانون من أمراض قاهرة ، ومع ذلك أنتجوا أروع أعمالهم فى ظل المرض ، وسنناقش رأى الدكتورة فى أسلوب الرافعى وأدبه حين نتعرض لهما فى صفحات تالية من هذا الكتاب ٠

شاعر الملك :

فى عام ١٩٢٦ رجع الرافعى الى الشعر الذى هجره لولا قصائد قالها تفاريق فى سنوات بعيدة ، وسبب رجوعه الى الفن الذى عرف به أول حياته الأدبية ، أن (محمد نجيب باشا) ناظر الخاصة

الملكية ، طلب من الرافعى أن يـــكون شاعر الملك ، فوقع الطلب من الرافعى موقعه ، وكان عليه أن يدبج قصيدة فى كل عيد جلوس ملكى وما أشبه ، وكان عبد الحليم المصرى شاعر الملك قبله ، وهى منزلة يتطلع اليها الشعراء الذين عاصروا (شوقى) وهو (شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية) ، وكان المنصـــب منصب شرف وجاه أدبى ، فلم يكن الرافعى يتقاضى أجرا ، وكل ما ناله جواز سفر مجانيا فى الدرجة الأولى على خطوط السكة الحديدية ، وتعـــليم ابنه على نفقة الديوان الملكى فى فرنسا ، وطبع كتابه (اعجاز القرآن) على نفقـــة الملك ، والدلال على موظفى محكمة طنطـــا من « كتبة » و « محضرين » !

الا أن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد سحب منه جواز السفر ، وانقطع المورد المالى عن ابنه ، فكان عليه أن يكتب فى (الرسالة) باستمرار حتى يستطيع أن يرسل لابنه الذى يدرس الطب فى (ليون) نفقات معيشته وتعليمه ، وذلك أن الأمور قد ساءت بينه وبين الابراشى باشا ، الذى كان ناظرا للخاصة الملكية بعد محمد نجيب باشا الذى احتضن الرافعى وعينه شاعرا للملك . ويرجع ذلك الى اعتداد الرافعى وكبريائه ، فقد ذهب مرة الى الديوان الملكى ليقابل الابراشى باشا ، فجلس فى انتظار مقـــابلته بعـــد أن أخطره بمجيئه ، وطال الانتظار ساعات ، وانتهى الأمر بعد طول الانتظار بأن طلب من الرافعى أن يعود فى يوم آخر لأن معالى الباشا مشغول ، فثار الرافعى لكرامته ، ودخل الحجرة التى فيها الباشا ، وكان معه أحد الأجانب ، وقال ما أنصف كرامته وخرج ، فأسرها الابراشى فى نفسه ، وكان ما كان من سحب جواز السفر (الأبونيه) ، وخلع الرافعى من منصب شاعر الملك ، وقطع المعونة المالية عن ابنه الذى يدرس فى فرنسا .

ويحكى سعيد العريان عن صحبته للرافعى منـــذ عام ١٩٣٢ ، ويتحدث عن صلته به فيقول : « له فى كل يوم ساعات محدودة

للقراءة والاطلاع ، وكانت هذه الساعات المحدودة فى أكثر لياليه تمتد من المغرب الى منتصف الليل .. وكنت بصحبته يومئذ قريب العهد ولكنى كنت ألصق أصحابه به ، فكان لى معه كل يوم ساعات ، يقرأ لى وأستمع اليه فى داره ، أو أماشيه فى الخلاء ، أو أجالسه فى القهوة ، أو أصحبه الى السينما . وكان على فى هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن ، أن أقرأ ما يهدى اليه من الكتب ، لأشير الى المواضع التى يجدى عليه أن يقرأها ، ضـــنا بوقته على قراءة ما لا يفيد . وكثيرا ما كان يدفع الى بعض ما يرد اليه من الرسائل ، لأرى رأيى ، وأشير عليه بالجواب ، أو أتولى ذلك بنفسى . وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير فى تكوينى وتوجيهى فى الأدب توجيها لم أكن أقصد اليه ، كما تأثر هو بصحبتى فى هذه الفترة تأثرا وجهه فى أدب الانشاء توجيها لم يكن يعرف به منذ نشأ فى الأدب قبل ذلك بثلاثين سنة ، فبدا أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء ، وكان قبلها يتهم بالغموض والتعقيد .. » . ويحكى العريان أنه كان يعترض على بعض ما يملى عليه ، لغموض فى الفكرة ، أو تعمية فى الأسلوب ، وكان الرافعى لكبريائه يرفض نقد العريان ، ولكنه فى آخر الأمر كان يأخذ برأيه ، فيعدل ويبسط فى القول ، وكان يسميه على سبيل المزاح : العقل المتوسط من القراء !

موته :

استيقظ الرافعي فجر يوم الاثنين ١٠ مايو عام ١٩٣٧ فتوضأ وصلى ، وجلس يقرأ بعض آيات القرآن الكريم ، وأحس باضطراب في معدته ، وكان ابنه الدكتور محمد قد استيقظ ، فشرح له ما يحس ، فأعطاه ابنه دواء ، وطلب منه أن ينام ، وبعد ساعتين قام الرافعي ، وبينما كان في طريقه الى الحمام ، سقط في البهو ، وهرع أهله مذعورين ليجدوه قد أسلم الروح .

وقد دفن عصر هذا اليوم جوار أبويه في مقبرة الرافعي بطنطا ، ولم يشيعه الا عشرات من زملائه الموظفين في محكمة طنطا وبعض جيرانه .

وترك الرافعي وراءه عشرة من أولاده ، أكبرهم كان - يوم موته - طالبا باحدى البعثات بأمريكا وهو (سامي) ، وأصغرهم (سعدية) الطفلة ، فكان على ابنه الدكتور محمد أن يعول الأسرة .

ولم يكن معاش الرافعي كبيرا ، فهو لم يزد عن بضعة عشر جنيها ، رفضت الوزارة أن تتنازل عن حقها فيه ، حينما كتب رئيس الرافعي في وزارة الحقانية يطلب أن تتنازل الوزارة عن حقها في المعاش !

ومات الرافعي دون أن يقام له حفل تأبين أو ذكرى حتى اليوم !!

الباب الثانى

مع الوحى

مع الوحى :

كان الرافعى كأغلب الأدباء ، يدون ما يعن له من رأى ، وما يخطر على باله من أفكار ، فى ورقات بجيبه ، وكثيرا ما تكون فكرة من هذه الأفكار موضوعا لمقال ، حتى اذا لم يجد هذا الموضوع فى الوقت الذى تطالبه فيه مجلة (الرسالة) بمقاله المرتقب ، رجع الى ما دونه من شتيت الأفكار ، فينشرها تحت عنوان (كلمة وكليمة) ..

وكان من عادته أن يترك الموضوع الذى يريد الكتابة فيه ، يدور فى نفسه وفى عقله الباطن ، حتى اذا استوى ونضج ، جلس ليكتبه. وكانت الكتابة عنده ضربا من الصناعة وفنا من التثقيف ، وكان اذا أراد أن يتهيأ للكتابة ، تناول كتابا من كتب العربية قديما ، وقرأ فيه مدة تعينه على تمثل الأسلوب العربى فى نصاعته الأولى ، وقوته البكر ، وكان يقول للعريان ، ان عربية اليوم غير صحيحة ، وانه يعيش فى جو عامى ، حتى اذا عاش فى جو العربية القديمة ، تهيأ للكتابة أو الاملاء ، وليس غرضه من ذلك الا أن يحلق — ساعة الكتابة — فى نفس الجو العربى الأصيل الذى عاش فيه دقائق .

وقد كان الرافعى — على وقر أذنيه — شديد الحساسية حتى من النسيم ، ويحكى سعيد العريان انه كان كثير التدخين وانه لم يكن يستطيع وهو يكتب ما يملى الرافعى عليه ، أن يفتح باب الشرفة ، لأن النسيم كان يضايقه ، حتى اذا نال منهما التعب ، فتح العريان باب الشرفة ليجدد الهواء . الا أن الرافعى كان محبا للهواء الطلق فى غير وقت الكتابة ، فكان اذا فرغ منها خرج الى الشرفة يعب الهواء ملء رئتيه ، وكثيرا ما كان يخرج مع العريان يمشيان فى العراء بعد كد الاملاء والكتابة .

وكان الرافعى حين يملى على سعيد العريان ، يملى متدفقا حينا ، بطيئا حينا آخر ، ويحدث أن يصمت ويطول صمته ، وكان

من عادته اذا توقف هكذا ، أن يمد يده الى أى كتاب يفتحه ، فاذا الخواطر تنثال عليه .

وكان يحتفل بايقاع الجملة ، فيدقق فى اختيار الألفاظ ، وربما أعاد صياغة الجملة مرة أخرى ، لأنها فى شكلها الجديد أخف وقعا ، أو أجمل جرسا . يقول العريان : « كان المامه بمتن اللغة ، واحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفروق اللغوية فى مترادف الكلام ، معينة له عونا كبيرا على البلوغ بعبارته الى هذا الأوج من البيان الرفيع . احتاج مرة أن يعبر عن معنى فى أسلوب من أساوبه ، فتأبى عليه ، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت اليه ، فاذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته بابا من كتاب المخصص لابن سيده ، ثم دعا بالكتاب فأخرجته اليه ، فما هو الا أن فتحه ، حتى وقع على مراده ، فطوى الكتاب ، وعاد الى املائه . وهو على صحة عبارته وسلامتها ، قلما كان يلجأ الى معجم من المعاجم ، ليبحث عن كلمة أو معنى كلمة .. » .

وكان الشاى أو القهوة عونا له ساعة الكتابة أو الاملاء ، يشرب فنجانا أو فنجانين ، ويدخن سيجارة أو اثنتين . حتى اذا خرج الى المقهى دخن النرجيلة ، فاذا فرغ من المقال تركه ، ليعود اليه فى الصباح الباكر يعيد قراءته . وكان الرافعى يلتمس بعض موضوعاته من خبرات حياته ، ويحكى العريان أن مقاله (أحلام فى الشارع) كانت وليدة مشية فى الطريق آخر الليل ، وحينما مرا بجوار (بنك مصر) رأيا طفلا وطفلة من أبناء الشارع نائمين على عتبة البنك ، وفى الصباح أملى الرافعى على العريان هذه المقالة .

وفى تعقيب على موضوع تناولته طائفة من الشبان بمجلة (الأسبوع) كتب مقالة كان كثير التحدث عنها ، هى (تربية

لؤلؤية) . ومن خبرته بأصدقاء له كانوا شبابا ، تجمعت لديه آراء الشباب فى المرأة ، وكان هناك محام ناشىء ، محب للأدب ، يجالسهم فى المقهى ، وحدث أن سأله الرافعى : لماذا لا تتزوج ؟

فكانت اجابة المحامى : أتزوج ؟ وما يحملنى على ذلك ؟

أتريدنى أن أبيع حريتى من أجل امرأة ؟

وأكمل حديثه مدافعا عن وجهة نظره ، مدللا على ما يقول .

وفى اليوم التـــالى ، أملى على العريان مقالة كان باعثهـــا هذا الحديث ، وكان العنوان (استنوق الجمل) .

وفى مقالة (عرش الورد) وصف مجلس العروسين ، ابنته وابن عمها فى (الكوشة) وكانت حفلة عرس ابنته الكبرى (وهيبه) التى ذكرها فى الديوان وفى (النظرات) وفى (عرش الورد) .

ويحكى أن بعض أصدقائه طلبوا منه أن يرافقهم الى منتدى (البلدية) ليشاهدوا فرقة تمثيلية فيها راقصة ساحرة .. فلم يوافقهم الرافعى على الذهاب ، فعاد أحدهم يغريه ويقول ان هذه الراقصة قد تلهمه فصلا من (أوراق الورد) ، لأنها تصوم وتصلى، وتعرف واجباتها الدينية وتؤديها ، فذهب الرافعى معهم مصدقا ما سمع ، وكانت مقالته (فى اللهب ولا تحترق) . وعرف الرافعى أخيرا أن هذه الراقصة هربت مع موسيقى الفرقة ، وأن زوجها يطاردهما ، كما علم أن صديقه الذى صورها فى صورة القديسة ، لم يفعل ذلك الا اغراء له على الذهاب .

وحدث أن ماتت زوج صديقه حسنين مخلوف ، مخلفـــة وراءها أربعة من الأبنـــاء ، وعاد الرافعى من جنازتها ، ليعزى صديقه ، وكان أن رأى أحد أبنائها ، وفى اليوم التالى أملى مقـــاله (موت أم) .

وقد كانت رسائل القراء اليه حينما كان يكتب فى (الرسالة) بانتظام معينا له على اختيار موضوعات كتاباته ، ويقال ان عددها وصل الى ثلاثين رسالة فى اليوم ، ومن هذه الرسائل واحـــدة دسها سعيد العريان ، وكان الرافعى قد كتب قصة عن سعيد ابن المسيب ، فكتب سعيد العريان على لسان آنسة وقعت رسالتها بامضاء (آنسة س) ، تعيب على الرافعي أن ترك سعيد بن المسيب يظلم ابنته ، وكان أساوب الآنسة تقليـــدا لأسلوب طه حسين ، ووصلت الرسالة ، وظن الرافعي أنها من أحد تلاميذ أو تلميذات طه ، أوحى اليه ما كتب ، ومن هنا كان الرد عنيفا فى مقاله (ذيل القصة وفلسفة المهر ..) ، ولكن الزيات صاحب الرسالة ، أرسل الى الرافعى يستأذنه فى حذف مقدمة المقال ، لأن فيها تعريضـا بطه حسين ، وهو حريص على صلته بالرسالة .

وكان من عادة الرافعى اذا لم يدفعه الموضـــوع الى كتابته مباشرة ، أن يجمع ما يتفق له من الآراء والأفكار فى ورقة خاصة ، حتى اذا أحس أن هذه الحصيلة كافية كتب موضـوعه . ومن هذه الموضوعات التى كان يجمع لها لبنائها ، مقالة لم تكتب عن صديقه (الزبال الفيلسوف) ، الذى أشار اليه فى هامش مقاله (بنت الباشا) فقد مات قبل اتمامها . وكان هذا الزبال عاملا من عمال النظافة فى بلدية طنطا ، اعتـــاد الجلوس أمام مكتب شقيق الرافعى ، حيث كان يحلو للرافعى أن يجلس على كرسى يروح عن نفسه ، وكان الرافعى يحادث الرجل فيكتشف فيه البســـاطة وفلسفة الرضا ، وكان يسميه (أرسطو الجديد) ، وكان الرجل أميا ، الا أن الرافعى عرف على يديه عددا من الألفـاظ العاميـــة والأمثال الشعبية التى كان يجهلها . وقد كتب الرافعى على لسانه أغنية استلهم فيها فلسفة الرجل الراضية ومنها قوله :

يا ليـل ، يا ليـل ، يا ليـل ما تنجـلى يا ليـل
القـلب أهـو راضى لـك حمـدى يا ربى
مـن الهمـوم فاضى افـرح لى يا قلبى

* * *

يا دوب كـدا يا دوب زى الحمـام عايش
ما يمتلك غـير توب طول عمـره فيـه نافش
يا ليـل ، يا ليـل ، يا ليـل ما تنجـلى يا ليـل

* * *

بين السـيوف يا ناس لم انكسـر سـيفى
وابن الغنى محتـاس وأنـا عـلى كيفى
يا ليـل ، يا ليـل ، يا ليـل ما تنجـلى ياليـل

* * *

وابن الغنى ف همـوم والخـال خالى البـال
والفقـر ما بيـدوم وتدوم هموم المال .. الخ ..

واذا كانت تربية الرافعى فى وسط دينى قد حددت له وجهات النظر فى أمور الحياة ، فان ماكان يسمعه من بعض الشباب الذين كانوا يجلسون معه فى مقهى (طنوس) بطنطا قد أفقده الثقـة فى الشباب عامة ، وكان الرافعى لقلة خبرته بالمرأة ، يستمع الى هؤلاء الشباب يحكون عن المرأة حكايات لفتت نظره ،ومن هنا كان هذان العاملان موجهين لموقفه الاجتماعى ، والى ذلك تنسب قصـيدة (احذرى) ، كما تنسب كثرة من مقالاته التى أخذت موقف الشك من الحضارة الغربية وتقاليدها ومطالبها ، كدعوة تحرر المرأة مثلا . والى حديث الشباب تنسب أيضا قصة (سمو الحب) ، فقد كان هذا الحديث وكتاب الأغانى وشهر رمضان مكونات هذه القصة ،

فقد دفعه حديث الشباب عن الحب الى تصويره فى أوج سموه ، ودفعه رمضان الى الجو الدينى ومعانيه التى أجراها على لسان مفتى مكة ، أما كتاب الأغانى فقد زوده بهيكل القصة التى دارت حول (سلامة) المغنية جارية يزيد بن عبد الملك .

وكان الرافعى لا يميل الى الكتابة فى رمضان ، وأكثر كتابته كانت بعد العشاء ، بعد أن يتخفف من طعام الفطور ، حتى اذا كان الأسبوع الأخير من رمضان قضاه فى صحبة العريان أملى عليه قصة (الله أكبر) ، وهى قصة تنهج نهج (سمو الحب) .

ويتحدث العريان عن زيارة للرافعى له فى المدرسة التى كان يعمل بها فى طنطا ، ورؤيته أحد التلاميذ المرفهين ، وكان ابن أحد حكام البلدة ، ولما انصرف الغلام هو والجندى الذى يحمل حقيبته ، التفت الرافعى الى العريان يسأله (وبين تلاميذك كثير من مثل هذا الشمعون ؟) (١)

وكانت هذه الزيارة وحى قصته (الطفولتان) .

وخطب ابنه سامى – وكان معيدا بكلية الزراعة قبل سفره الى بعثة بأمريكا – ابنة خاله ، ومرضت الخطيبة بداء الصدر ، وكان أبوها تاجرا أكلت ماله الأزمة ، فقام سامى بدوره فى الانفاق عليها عند الأطباء ، ولكن الداء لم يمهلها فماتت ، ومن هنا كانت مقالة الرافعى (عروس تزف الى قبرها ..) .

كان الرافعى يستوحى اذن حياته وحياة الناس حوله ، تلتقط أعصابه الحساسة موحيات هذه الحيوات العريضة . الا أنه كان

---

(١) كان الرافعى يطلق اسم (شمعون) على كل فتى مدلل جميل ، وسبب هذه التسمية ، أن الشاعر العراقى الكاظمى ، كان له غلام بهذه الصفة اسمه (شمعون) ، رآه الرافعى فى احدى زياراته للكاظمى ، ومنذ ذلك الحين كان الرافعى يطلق اسم هذا الغلام على كل من تتحقق فيه صفات هذا (الشمعون) .

عندما يكتب القصة أو يحاول كتابتهـــا يرجع فى الأغلب الأعم الى شخصيات قديمة ، يدير حولها حكايات تصـل به الى مايريد من دعوة الى الفضيلة والخلق القويم . ولعل هذه العجالة قد أنارت جانبا مما كتب .. وأشارت الى موحيات هذه الكتابة .

ولكن يبدو هنا سؤال واجب هو : أهناك كتابات أخرى للرافعى لم تنشر باسمه ؟

يجيب سعيد العريان على هذا السؤال بالايجاب .

فقد نحل الرافعى أخاه الشيخ محمـد كامل الرافعى ، شرح ديوانه ، وقد استنتجت هذه الحقيقة خلال دراستى للديوان ، ففى شرح هذا الديوان ثقافة أديب ، واطلاع مفكر ، بحيث يشك الانسان فى نسبتهما الى شيخ مغمور لم يعرف عنه اشتغال بفكر أو أدب .. ومن ذلك .. الحـديث فى هامش ص ٢٧ من الديوان عن ملوك الأندلس ، وفى هامش ص ٣٥ عن سور الصين وأول من أقامه ، وأول من دخل الصين من المسلمين ، وفى هامش ص ٥٩ حديث عن ملابس الحداد وكيف كانت فى القـــرون الوسطى فى أوروبا ، وفى هامش ص ٣٩ ، ٤٩ يتحدث عن أساطير اليونان ويلخص بعضها ، فضلا عن الاعتداد بالنفس المعروف عن الرافعى والذى يظهـر فى تعليقاته على بعض الأبيات التى تعجبه . ومن ذلك قوله تعليقا على معنى له حول خزان أسوان ، يقول فيه انه يعلم النيل الانفاق من غير اسراف (ولم يحم أحد حول هـذا المعنى على كثرة ما قرأناه للشعراء فى وصف الخزان ..) ويقول فى هامش ص ٥٦ (هذا البيت مما لم يسبق اليه الشاعر ولا أحسن من تشبيه الضلوع التى أضناها الهوى بالزجاج الخ ..) ، أو قوله فى هامش ص ٦٢ بعد أن شرح بيتا (أليس هذا هو البيان ؟) أو قوله فى هامش ص ٦٣ (وهـذا البيت من أحسن ما وجدته فى الكناية ، ولو تقدم به الزمان لكان فى صدر الأمثال ..)

ومن هذا الكلام المنحول ، ما كتبه الرافعى لصديق محـام يلتمس الافراج عن سجين وزوجته اتهما بقتل شقيقة السجين ، ولم يكن لهما يد فى هذه الجريمة ، وقدمت المذكرة باسم المحامى الذى أعطى الرافعى نصيبه من (الأتعاب) . واقد ظل هذا التعاون بينهما فى مسائل ثقافية وأدبية بعد ذلك .

وهناك أحاديث ومقالات نسبت الى أدباء ناشئين ، يرد بهـا الرافعى هجوما عليه ، أو ينقد بعيدا عن الحرج .

وفى سنة ١٩١١ أصدر الرافعى كتابه (تاريخ آداب العرب) وكتبت الصحف عنه مقرظة ، ولكن الرافعى لم يكتف بذلك ، وأحب أن يكتب صديقه أحمد زكى باشا عن الكتاب ، وحدث أن لقيه فى (المؤيد) ، فطلب منه ذلك ، فقال أحمد زكى : ومـاذا تريدنى أن أكتب ؟ قال الرافعى (أن تقول كذا وكذا) فقال أحمد زكى : (اكتب اذن ماتريد وسأضع تحته اسمى) وجلس الرافعى الى مكتب فى دار الجريدة وكتب المقال .. وفى اليوم التالى صدر (المؤيد) وقد احتل المقال الصفحة الأولى كلها !

وحينما ذاع نشيد (اسلمى يا مصر) للرافعى ، طالع القراء فى جريدة (الأخبار) مقالا يقرظ النشيد ومؤلفه بامضاء أحمد زكى باشا ، ولم يكن كاتبه الا مؤلف النشيد نفسه !



الباب الثالث

١ ـ المرأة فى حياته

٢ ـ الرافعى ومى

المرأة فى حيـــاته :

ابتدأ الرافعى حياته الأدبية شاعرا يطمح أن يكون صاحب مركز مرموق فى عالم القصيد ، وكان منذ شبابه الباكر حريصا على لقب « شاعر الحسن » . وله على تدينه وخلقه ومواقفه المعروفة فى الدفاع عن الاسلام والعروبة اهتمام بالمرأة ، فقد كان الحسن يسبيه ، والأنوثة تفتنه ، الا أنه لم يعرف طريق الغواية ، وكانت علاقاته بالحبيبات علاقة الطهر والعفـــاف ، وأقصى مراده من المرأة أن يستلهمها وأن تكون له مصدر وحى ، فكان يسعى الى منازل المهاجرين من أهل الشام الذين يعيشون فى طنطا ، ووسط الجو العائلى يستروح نسمات الأنوثة على طهر وعفــــة ، أو يجلس فى مقهى (طنوس) بطنطا يرى الغـــاديات والرائحات ، وكانت كل حسناء عنده ، شـــاعرة لأنها توحى له الشعر ، وترتفع الواحدة منهن فى مراتب الجمال حتى تشبه بشاعر يدانى جمالها فى الشاعرية ، فتكون الواحدة منهن المتنبى أو البحترى وتكون القبيحة منهن عبد الله عفيفى !

ولعل هذه الآفة التى عذبته ، قد حجبت عنه خبرة مباشرة بعالم المرأة ، ولعل تدينه قد ساعد آفته على ذلك ، وكل ما كان الرافعى يبغيه من المرأة أن تخاطب روحها روحه ، يؤكد هذا ما نعرفه عنه وعن حياته ، ويؤكده هو نفسه حينما يقول : « وأنا على كل أحوالى انما أنظر الى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعا فى الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمسه ، ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى ، ثم لا تدفعنى اليه ، الا فطـــرة الشعر

والاحساس الروحانى ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة ، أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ..»

وهو يطبق هذا النهج فى سلوكه ، فقد أحب وهو متزوج ، وتحرج من هذا الحب ، ففاتح زوجته وأخبرها أنه حب برىء لا مقصد وراءه ، فأذنت له ، وكانت تقرأ رسائله كما تقرأ رسائلها !

كانت صلة الرافعى بالمرأة اذن صلة بعد ، كمن ينظر الى الزهرة الجميلة على مسافة أمتار دون أن يمسها ، ومن هنا كانت قلة درايته بعالم المرأة ، ومن هنا أيضا كان جلوسه الى فتى له صولات وجولات فى هذا العالم المائج ، يستمع الى مغامراته والى ما كتبه عن هذه المغامرات ، كما كان يقرأ رسائل الفتيات اليه ، ويؤكد سعيد العريان ذلك فى قوله : « وقرأ الرافعى بعض ماينشر صاحبنا ، فرأى علما جديدا لم يدخل اليه من باب ، ولم يقرأه فى كتاب ، فأرسل يستدعى صاحب هذه المقالات اليه ، ليفيد علما من علمه ومن تجاربه .. » .

وكانت الفتاة التى خفق لها قلبه أول ما خفق (عصفوره) ، وهى فتاة من (كفر الزيات) ، كان يلاقيها على الجسر ، وسنه حينئذ احدى وعشرون سنة ، ومن وحى هذه الفتاة كتب قصائد الغزل التى ضمها ديوانه الأول .

وفى عام ۱۹۱۲ زار الرافعى لبنان ، وهناك أحب فتاة كان من أثرها فى نفسه أن كتب (حديث القمر) .

وتقع حادثة حب أخرى فى حياة الرافعى ، فقد كان فى الاسكندرية يصطاف ، وفى جلسة من جلساته مع صديقه السياسى الأديب الأستاذ حافظ ، تعرف الرافعى الى راقصة أجنبية كانت تعمل فى الملهى الذى يجلسان فيه .. وكانت شرفة الملهى تخلو كل صباح من الناس ، وهذا مادعاهما الى ايثار

الجلوس فيها ، وكان الأستاذ حافظ يزمع اصدار كتاب فى موضوع اسلامي ، وكان الرافعى يعاونه فيه . واطمأنت الراقصة الى الرافعى وحكت له من حياتها ما جعله يعطف عليها ، وسرعان ماكتب (الجمال البائس) بوحى من هذه الراقصة التى كانت تعمل فى فرقة (ببا) !

ويرجع الرافعى الى طنطا ، وترجع الراقصة الى القاهرة ، وفى زيارة للرافعى للقاهرة ، يطلب من سعيد العريان الذى صحبه ، أن يذهبا الى الملهى الذى تعمل فيه الراقصة ، ويذهبان الى هناك ، ويرى الرافعى صورة للراقصة كبيرة تملأ جدار الملهى فى شارع عماد الدين ، ويقف الرافعى مترددا أمام الباب ، ثم يندفع الى العريان ويقول : « أيليق بنا أن ندخل الى مثل هذا المكان .. ؟ .. » .

ويعطيه صديقه حسن مظهر محرر مجلة (اللطائف) صورة الراقصة بعد أن حكى الرافعى له قصتها ، وتظل الصورة معه لا تفارقه سنين .

وقد حدث أن حكى الرافعى قصتها لتوفيق الحكيم ، الذى يحكى أن الرافعى راح يصفها له وصفا شعريا رائعا ، وأخيرا أخرج من جيبه صورة لها ، ويعلق الحكيم على ذلك قائلا : « قارنت بين الوصف الذى سمعت والصورة التى بين يدى ، فكأننى استيقظت من حلم جميل .. يرحمه الله .. لقد كان شاعرا .. » .

الرافعي ومي :

علاقة الحب بين الرافعي ومي ، علاقة اهتم بها كثير من الأدباء ، كتب عنها من كتبوا عن الرافعي ، ومن تعرضـــوا لحياة مي ، ولكن يبدو لنا أن معرفتنا بحياة الرجل ونمط شخصيته ، وبأقوال أصدقائه الأقربين ، تحدد لنا نوع هذه العلاقة ، التي بدأت يوم أن ذهب الرافعي في يوم ثلاثاء ــ وكان اليوم الذي تقيم فيه « مي » ندوتها الأدبية ــ الى منزلها ،وكان قد تجاوز الشباب وخلف وراءه أربعين سنة ونيفا ، فانقطعت اليه ساعات يحادثها وتحادثه ، وما قطع هذه الخلوة الا قيامها لتعتذر الى ضيوفها ، وتعود اليه ثانية ، ليكملا حديثهما ، وودعته عند الباب ، وهي تسأله متى تراه ثانية .. وتردد الرافعي على ندوتها ، وكان أول القادمين وآخر المنصرفين ، فاذا منعته شواغل الحياة الملحة عن السفر الى القاهرة للاقاتها ، كتب اليها من طنطا وكتبت اليه . وأحبها الرافعي حبا جارفا بكل ما فيه من فطرة الشاعرية ، وصفاء الروحانية ، حتى جاء يوم زارها فيه ، فوجد عندها شاعرا يحادثها ، فجلس منتظرا ، ومي تحتفل بالشاعر وتوليه اهتمامها .. فثارت كبرياء الرافعي وقام خارجا .. وكانت القطيعة ..

ومضت ثلاث عشرة سـنة أو أربع عشرة سـنة ، لم يرها خلالها الا مرة ، في حفلة خيرية أقيمت بطنطا ، وكانت ستتحدث فيها .. وكان الرافعي أيضا أحد المتحدثين ، وتلاقت عيونهما فجأة ، فما استطاع الرافعي المكوث ، وهرول الى الخارج يلتمس الفرار ، فقد منعته كبرياؤه أن يتقدم اليها ، وكان أن سألت عنه :

(أين الرافعى ؟) ولكنه كان فى طريقة الى بيته بصحبة صديق عمره جورج ابراهيم .

ويحكى العريان أن الرافعى قال له فى خريف عام ١٩٣٢ ان صوتا يهتف به أنه سيلقاها بعد عشر سنين من رسالة القطيعة التى كتبها عام ١٩٢٤ ، أى انه سيلقاها عام ١٩٣٤ ، وقد مرت السنون ، وما تحقق أمله .

وحدث أنهما كانا فى القاهرة شتاء عام ١٩٣٥ ، فقال الرافعى للعريان : « مل بنا الى هذا الشارع .. » ، ووقف الرافعى أمام بيت ، ورفع رأسه الى فوق ، ثم قال « هذا بيتها ، ولعلها الآن خلف هـــذه النافذة .. هل تصحبنى اليها غدا ؟ .. نزورها ونتحدث اليها » ؟

وفى غد ذكر العريان الرافعى بما قاله أمس فقال : « يابنى انهـــا ليست هناك .. أن (مى) التى أعرفهـــا قد ذهبت منذ اثنتى عشرة سنة ، أما هذه فأظننى لا أعرفها .. اننى أحرص على صـــورة الماضى الجميل ، وما أحب أن تتغير صـــورته فى نفسى » .

ورجعا الى طنطا ، وما لبث الرافعى حتى سمع انها سافرت تستشفى فى لبنان لعلة فى أعصابها .

وقد استوحى الرافعى هذا الحب ، فكانت كتبه الثلاثة : رسائل الاحزان ــ الســحاب الأحمر ــ أوراق الورد . ويقول العريان انه يحكى قصة هـــــذا الحب كما سمعها من الرافعى نفسه ، وقد أراه رسالة أو رسالتين بخط (مى) ..

يقول العريان عنهما وعن قصة هذا الحب : (وهما وان لم تدلا دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب ،

لا تنفيانها كذلك ، بل لعلهما أقرب الى الاثبات منهما الى النفى ، والحذر طبيعة المرأة ! ثم ان الرافعى لم يخصنى وحدى برواية هذه الحادثة ، فان عشرات من الأدباء فى مصر قد سمعوها عنه ، ومنهم من يعرف (فلانة) معرفة الرأى والنظر ، ومنهم من كان يغشى مجلسها ، لا يتخلف مرة ، .. فلو أن الرافعى كان يتزيد فيما روى لى ولأصحابى من حديث هذا الحب ، لخشى مغبة أمره ، وان (فلانة) يومئذ ذات جاه وسلطان) ..

وهو فى عرضه الموضوعى لجوانب هذه المسألة ، يذكر أن جورج ابراهيم صديق الرافعى القديم ، ينكر أن هناك حبا متبادلا بين مى والرافعى ، ويحكى عن جورج ابراهيم انه صحب الرافعى فى زيارته الأولى لمى ، ويعترف جورج أن الرافعى قد انفعل بشخصيتها وثقافتها وحديثها ، ويؤكد انه حب من طرف واحد !

ويبدو لى ان المسألة لم تخرج عن هذه النقطة ، لأسباب كثيرة سنبسط بعضها ، منها أن فؤاد صروف محرر المقتطف علق على قصة هذا الحب فقال : انه سمع هذه القصة من الرافعى نفسه ، ولكنك يشك فى أن تكون (مى) قد بادلته حبا بحب ، ودليله على ذلك أنه فى يناير عام ١٩٣٤ أو ١٩٣٥ ، دعته (مى) الى زيارتها ، فلما التقيا دفعت اليه وهى غاضبة برسالتين من رسائل الحب أرسلهما الرافعى اليها ، ثم قالت له : ماذا ترانى أفعل لأذود عن نفسى ؟ أترانى أتقدم الى القضاء ؟

ان معرفتنا بظروف هذا الحب ، وبشخصية الرافعى وبشخصية (مى) تؤكد أنه حب من طرف واحد ، فقد كانت (مى) شابة جميلة مرموقة ، وأديبة ذائعة الصيت فى وقت كانت المرأة البارزة فيه ـ وبخاصة صاحبة الموهبة ـ حدثا من الأحداث ، و (مى) تقابل فى ندوتها صفوة المفكرين والأدباء ، وذوى المكانة من أهل الرأى والسياسة فى مصر ، أمثال اسماعيل صبرى

ومنصـــور فهمى وخايــل مطران وطه حسين ولطفى السيد ومصطفى عبد الرازق والعقاد والمازنى وغيرهم .. فاسماعيل صبرى يقول فيها وفى ندوتها :

روحى على بعض دور الحى هائمـة
كظـــامىء الطـــير تواقا الى المـاء

ان لم أمتع بمى ناظرى غـــدا
لا كان صـــبحك يا يوم الثـــلاثاء

ويقول الدكتور منصور فهمى :

« كانت بارعة الظرف ، تشارك فى كل علم ، وفى كل حديث ، وتختصر للجليس سعادة العمر فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة »

ويقول عباس العقاد ردا على سؤال محمد عبد الغنى حسن اليه عن براعتها فى ادارة الحديث :

« لا يحضرنى مثل لذلك أدل على البراعة من ادارتها الحديث فى مجلس حضره نحو ثلاثين كاتبا وأديبا ووزيرا للتشـــاور فى الاحتفال بالعيد الخمسينى للمقتطف ، وكان اجتماع هـــذا المجلس عندها فى ابان المنازعات السياسية التى وصلت بكثير من الكتاب والأدباء الى حد التقاطع والعداء .. وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون الى شتى الأحـــزاب ، منتمون الى مختلف الهيئات ، قضينا عندها ساعتين نسينا فيها أن فى البلد أحزابا أو منازعات سياسية بفضل براعتها فى التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث الى أبعد الموضوعات عن الخلاف والملاحاة . وما أحسب أن أحدا غير « مى » قد استطاع هذا الذى استطاعته فى تلك الأيام ، حتى أذكر أننى قلت لها وأنا أودعها تلك الليلة « لقد كنت يا آنسة فى هذا المساء تحملين معزف أرفيوس .. » .

ويقول طه حسين : « كان الذين يختلفون الى هذا الصالون متفاوتين تفاوتا شديدا ، فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية ، وعلى تفاوت أسنانهم أيضا ، وكان منهم السوريون وكان منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم ، وكان منهم الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون فى كل شيء ، ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية والانجليزية خاصة . وربما استمعوا لقصيدة تنشد أو مقالة تقرأ ، أو قطعة موسيقية تعزف أو أغنية تنفذ الى القلوب . وقد أتيح لى أن أكون من خاصة « مى » بفضل الأستاذ لطفى السيد ، فكنت أتأخر فى الصالون حتى ينصرف الزائرون ، وما أكثر الليالى التى انصرف فيها الزائرون جميعا ، ولم يبق منهم الا الأستاذ لطفى السيد ومحمد حسن نائل المرصفى رحمهما الله وأنا .. وفى ذلك الوقت كانت مى تفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها أو انشائها ، ومن عزفها ومن غنائها ، ويظهر انى لن أنسى صوت « مى » حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة (يا حنينة) ، وتغنينا فى اللغات المختلفة وفى اللهجات المختلفة أيضا » ..

فهل كانت (مى) التى يعرف طريق ندوتها هؤلاء الأدباء والفلاسفة والشعراء لا ترى من يستحق قلبها وينال اعجابها الا الرافعى ؟ الذى لا شك فيه أنه حب من طرف واحد كما تبين ظروف هذه العلاقة ، وكما يؤكد جورج ابراهيم صديق الرافعى والذى لازمه أكثر عمره ، والذى صحبه الى ندوة مى أول مرة . على أن الرافعى لم ينس ميا طيلة عمره ، وظل على حبه لها والاعجاب بها ، فقد كانت مى فى نظره — كما كانت فى نظر الكثيرين كما مر بنا — صورة للأنوثة الحلوة ، والثقافة الخصبة ، والشخصية الآسرة ، ورجل كالرافعى تنفعل أعصابه بالجمال الانثوى — فيما يحدث العريان — قمين أن يحبها هذا الحب ، فهو مهيأ له بطبيعة تكوينه وظروفه ، وبخاصة فى مثل هذا الوقت

المتقدم الذى كان من النادر فيه أن ترى امرأة فى مثل جمال مى وشبابها وثقافتها . ولقد استرعت مى اهتمام الكثيرين من صفوة الأدباء والمفكرين ، وقد قيل فيها شعر كثير ، بل ان عددا منهم قد أحبها حبا صادقا ، ولكن كل واحد منهم خاف أن يكمل الشوط فيتزوجها ، فقد كان الزواج بامرأة مثل « مى » تفتح بيتها للرجال وتجالسهم فى حاجة الى شجاعة أدبية كبيرة ، وبخاصة فى هذه الفترة التى كانت « مى » تقيم فيها ندوتها ، وهى فترة كانت العادات والتقاليد الشرقية فيها صاحبة سلطان أكبر مما هى عليه اليوم ، وما أصدق قول العريان : « هى فتاة ذات جمال وفتنة ، ولها لسان وبيان ، وما يمنعها دينها ولا شىء من تقاليد أهلها ، أن يكون لها مجلس من الرجال فى ساعة فى يوم من كل أسبوع ، يضم شعراء العربية ورجالاتها أشتاتا لايؤلفها الا هـذا المجلس المعطر بعطر الشعر ، المرأة الجميلة ، أفتراهم يجتمعون فى دارها كل أسـبوع لتتوارى منهم خلف حجاب ، فلا سـمر ولا حديث » ؟ ..

الباب الرابع

١ ـ مع العقاد

٢ ـ مع طه حسين

٣ ـ مع عبد الله عفيفي

١ ـ مع العقاد :

كان منطلق العداوة بين الرافعي والعقاد ، لقاء بينهما فى دار المقتطف ، وحدث أن سأل الرافعي العقاد عن رأيه فى كتابه (اعجاز القرآن) ، فأبدى العقاد رأيه فى صراحة آلمت الرافعي ، وتطرق الحديث الى الاعجاز القرآنى نفسه ، وأبدى العقاد من الرأى فيه ما أثار حميـة الرافعي الدينية ، فأخذ يحـاوره ويناقشه ، ووصل به النقاش الى سؤال العقاد : « انك تجحد فضل كتابى .. فهل تراك أحسن رأيا من سعد زغلول » ؟

فقال العقاد : وما سعد ؟ وما رأى سعد ؟

وكان العقاد يكتب كلامه على الورق بخطه ، لأن الرافعي ـ كما نعلم ـ معطل حاسة السمع ، فقبض الرافعي بأصابعه على الورقة التى دون فيها العقاد رأيه المستخف بسعد الذى كان وقتئذ بطل الأمة ومعبودها الوطنى ، وقال للعقاد : هل تستطيع أن تجهر برأيك فى سعد على صفحات الجرائد ؟ فرد العقـاد قائلا : اسألنى هذا السؤال فى جريدة من الجرائد ، وسيكون جوابى ماذكرته لك الآن .

ونظر العقاد الى الرافعي وقال : ومع ذلك .. فمالك أنت وسعد ؟ لقد كتبت أنت هذا الرأى ونحلته سعدا حتى يروج كتابك .

وهنا هم الرافعي بالعقاد ، وتدخل الأستاذ صروف ، فخرج العقاد من الحجرة .

كان هذا اللقاء العاصف أول الشرارة فيما جرى بينهما بعد ذلك ، وكان العقاد قد أبدى رأيا فى أدب الرافعى عام ١٩١٧ ، تعقيبا على كتاب نشره الرافعى فى هـذا التاريخ ، قال : « انه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان مالا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية فى صدر أيامها .. » وأسرها الرافعى فى نفسه ، حتى اذا فرغ من مقالات (على السفود) التى كان ينقد فيهـا منافسه عبد الله عفيفى الذى أصبح (شاعر الملك) بعده ، طلب منه اسماعيل مظهر أن يكملها ، فقال الرافعى : حسبى ماكتبت وحسبه .

فقال له مظهر : اذن أكملها فى نقد شـاعر من الشعراء ، واهتبل الرافعى الفرصة ، فجلس ليكتب مقاله الأول فى نقد العقاد ، وتتابعت المقالات فى جريدة (العصور) التى كان يصدرها اسماعيل مظهر ، وشارك مظهر فى الهجوم على العقاد فى مجلة (أبولو) ، وكان يصدرها أحمد زكى أبو شادى ، بعد أن وقعت معركة أخرى بين أبى شادى والعقاد . وقد جمعت هذه المقالات بعد ذلك ، وطبعت بعنوانها الأول (على السفود) ، وكتب لهـا اسماعيل مظهر مقدمة لم يذكر فيها اسم كاتبها ، وكل ماذكره انها بقلم (امام من أئمة الأدب العربى) . ومما ذكره فى هـذه المقدمة شرحا لدافع نشرها : « أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعة الى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصى الذى كان سببا فى تأخـر الشرق عن لحـاق الأمم الأخرى ... ونقدم بهذه المقدمة تعريفا لما قصدنا من اذاعة هذه المقالات الانتقادية ، التى اعتقد بأنه لم ينسج على منوالها فى الأدب حتى الآن . وعسى أن يكون (السفود) مدرسة تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم ، ومثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ، ووثنية الصحافة .. » .

الا أن هذه المقالات النقدية ومثيلها مما كتب العقاد ردا عليها ، بلغت من الاسفاف حدا لا يليق بكاتبين معروفين ، ويحكى سعيد العريان أن الرافعى قد أحس بهذا بعد مدة ، وكان يقول : ان العقاد كان يستطيع أن يوقفه أمام القضاء بتهمة السب العلنى ، وان كان يعتذر عن نفسه ، ويقول انه كان يسب العقاد بنفس الطريقة التى كان العقاد يسبه بها ، وانه كان متأكدا من أن العقاد ماكان يلجأ الى القضاء ، لأن معه مستندات بخط العقاد ليست فى صالحه .

ولقد ظلت شخصية كاتب السفود مجهولة مدة من الزمن بالنسبة الى القراء ، وأخيرا عرفه الناس ، وذلك أن الرافعى كان يتحدث وسط الأدباء من أصدقائه فيقول انه صاحب الكتاب .

واحتدمت المعركة بين الرجلين ، حينما مات شوقى عام ١٩٣٢ ، فقد أرسل محرر (المقتطف) يطلب من الرافعى كتابة مقال عن شوقى ، وكتب الرافعى مشيدا بعبقرية شوقى ، الا أنه أخذ عليه أنه رفع جواب الشرط فى قوله :

ان رأتنى تميـــل عنى كأن لم
يك بينى وبينهـــا أشـــياء

واعتبره خطأ نحويا ، ورد العقاد فى مقال تال يدافع عن شوقى ــ وكانت بينهما عداوة ــ ويســفه رأى الرافعى الذى رد على الرد ، مصرا على موقفه من تخطئة أحمد شوقى ، آخذا على علماء العربية المتأخرين الذين استند اليهم العقاد خطأهم وضعف بصرهم باللغة ، وكان الرافعى يعتقد أن العقاد لا يملك فى هــذا الميدان شيئا من العلم ، وأن ما يذكره من أمور اللغة والنحو فى مقالاته وردوده يرجع فيها الى صديقه عباس الجمل .

وعادت المعركة شديدة الأوار مرة أخرى حين أصدر العقاد ديوانه (وحى الأربعين) ، ويحكى سعيد العريان ، أنه هو والرافعى

كانا فى زيارة أديب من مدرسى اللغـــة العربية اسمه حسنين مخلوف ، وجاء ذكر ديوان العقـــاد ، فطلب الرافعى منهما أن يقرءا شعر الديوان ويدلاه على أجود قصائده ، وانصرف الرافعى الى كتاب ، وترك صديقيه يقرءان ديوان العقاد ، وطال بينهمـــا النقاش ولم يصلا الى رأى ، فقال الرافعى نقرأ معـــا القصيدة الأولى ، فكل شاعر يفتتح ديوانه بأجود شعره ، وتحمس مخلوف فى نقد العقاد ، فما كان من الرافعى الا أن طلب منه أن يعلن رأيه على القراء فى جريدة من الجرائد مادام هذا رأيه فى شعر العقاد ، ونشر مخلوف مقاله فى نقد الديوان بجريدة (المقطم) ، وأرجأ بقيته الى عدد تال . ورد العقاد فى جريدة (الجهاد) على مخلوف، وكان أكثر رده تهكما وسخرية بمخلوف ، وبفهمه للشعر ، وخرج من نقده الى نقد مدرسى اللغة العربية جميعا ، مرجعـــا ضعف اللغة العربية فى المدارس اليهم . وكتب مخلوف يرد على العقاد ، الا أن الجريدة أغلقت الباب فى وجه مقاله ، حرصا على مودة العقاد .

وقال سعيد العريان للرافعى : « لقد كنت السبب فيما حدث لمخلوف .. فهل تترك المعركة تنتهى هكذا ؟ .. » .

وتحمس الرافعى وكتب مقالا فى نقد (وحى الأربعين) أملاه على العريان ، الذى ظل منذ ليلة هذا المقـــال ، يكتب للرافعى ما يمليه عليه ثلاث سنين ، حتى نقل الى مدرسة خارج طنطا ، فرجع الرافعى الى عادته الأولى ، يكتب لنفسه .

ونشر الرافعى مقاله فى جريدة (البلاغ) التى كانت بينهـــا وبين العقاد خصومة ، وملأ مقاله ثلاث صفحات فى يومين ، ورد العقاد ، فكان أكثر رده سبابا وأقله ردا على مواضع النقد ، الا أنه فى هـــذه المرة ، تناول مع الرافعى ناشر (على السفود) وكاتب مقدمته اسماعيل مظهر ، ولعل العقاد رأى الفرصة سانحة ليصفى حسابه مع مظهر .

وليس من شك فى أن الخلاف بين الرافعى والعقاد يدل على شجاعة أدبية ، فان كثيرا من الأدباء — ومنهم طه حسين — كانوا اذا اشتد الخلاف بينهم وبين العقاد ، يؤثرون الصمت ويتركون الميدان ، ذلك أن العقاد — ونقولها بروح موضوعية — كان يعتمد فى مناقشاته على الشتم والسخرية ، وكذلك كان الرافعى فى أغلب مناظراته مع الأدباء . ويعترف الرافعى فى بعض ما كتب ، بما فى أسلوبه من شـدة .. يقول : « فان كان فى أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول المؤلم ، أو التهكم ، فما ذلك أردنا ، ولكنا كالذى يصف الرجل الضال ليمنع المهتدى أن يضل ، فما به زجر الأول بل عظة الثانى .. » .

نقول ان محاجة العقاد فى ذلك الوقت كانت تدل على شجاعة أدبية ، لأن العقاد كان كاتب الوفد الأول ، والوفد حزب الأمة المصرية الذى تعلق عليه آمالا كبارا ، وكان فى الوفـد سعد ثم النحاس ، وهما زعيمان حققا شعبية ساحقة ، فالوقوف أمـام العقاد بالنقد ، يؤول الى أشياء أخرى ليس منها النقاش الأدبى الخالص لوجه الأدب ، ومع ذلك أكمل الرافعى طريقه ، غير مبال بما قد تجره عليه هذه الخصومة من أخطار .

ولقد كان الرافعى بعيدا عن السياسة والسياسيين ، ولكن روح المصاولة التى كانت تمور بنفســه ، هى التى دفعته الى الوقوف أمام العقاد وغيره من الأدباء .

ويحكى العريان انه ذهب الى الرافعى فى المحكمة ، حيث يعمل ، فابتدره الرافعى قائلا : هل قرأت مقال العقاد ؟ لقـد أغفل الرد على ما أخذته عليه ، وراح يسب ويشتم وهى حيلة العاجز .

وكتب الرافعى مقالا يرد به على الرد ، عنوانه «الثور والجزار والسكين» ، الا أن العقاد لم يكمل الصراع ، فقد رد شاكرا من

نصره ، معلنا اكتفاءه بالذى كتبه فى الموضوع . الا أن الأمور تنقلب وتدور ، فاذا بالعقاد الوفدى خارج الوفد ، يذمه ورئيسه ، ويهتبل الرافعى الفرصة ، فيكتب مقالا دون أن يوقعه باسمه عنوانه (أحمق الدولة) ، ويدفع به الى جريدة الوفد (كوكب الشرق) ، كما نشر بمجلة « الرسالة » كلمات بعنوان (كلمة وكليمة) ، يشير فيها الى العقاد ، وان لم يدرك ذلك كثيرون . وأصبح ذلك دأب الرافعى ، لا يجد فرصة يستطيع فيها النيل من العقاد الا وانتهزها ، ومن ذلك ماكتبه فى مقال عن على محمود طه فى « المقطم » وما نشره عن محمود أبو الوفا فى الرسالة .

ولقد ظلت العداوة بين الرجلين قائمة ، حتى اختار الله الى جواره مصطفى الرافعى ، وكان الزيات — فيما يحدث العريان — يرجو أن يستكتب العقاد فى الرسالة ، ولكن منعه من ذلك علمه باعتداد كل من العقاد والرافعى ، فهو لا يستطيع أن يقدم مقالا لأحدهما على الآخر ، وحسم موت الرافعى المسألة .

٢ ـ مع طه حسين :

كتب الرافعى فى (الجريدة) مقالين ينتقد فيهما تدريس الأدب فى الجامعة ، فلما أصدر كتابه (تاريخ آداب العرب) عام ١٩١١ ، ذاع اسمه وعرفه الناس . وكان الرافعى يقصد الى تدريس كتابه فى الجامعة ، وهو مطمح ظل فى نفسه ، ولكنه لم يتحقق . وقد كان طه حسين فى ذلك الوقت طالبا بالجامعة ، ولذلك نستبعد الرأى الذى يقول ان أول دوافع العداوة احساس طه بالغيرة من الرافعى لتأليفه هذا الكتاب ، فما كان طه يطمح فى الأستاذية وهو طالب ، وما كان هذا ليتحقق حتى لو أراده ، ولعل أول هذه الدوافع ما يحكيه عبد المعطى المسيرى ، من أن الرافعى زار (الجريدة) عام ١٩٠٨ أو عام ١٩٠٩ ، وكان طه حسين أحد محرريها ، وحينما مر الرافعى فى حجرة المحررين ، حيا الجميع الا طه حسين ، وأحسها طه فى نفسه كرامة جرحت ، ويتهيأ للرجلين أن يتلاقيا فى دار (السياسة الأسبوعية) حين ذهب الرافعى ليهدى اليها كتابه (رسائل الأحزان) وكان أن أبدى طه حسن رأيه فى الكتاب فى (السياسة الأسبوعية) ، وقال فيه ماقاله فى (تاريخ آداب العرب) و (حديث القمر) ، وهى تهمة لا يسلم منها الرافعى ، وهى مسحة الغموض التى ترين على بعض كتاباته ، ورد الرافعى عليه :

« يسلم عليك المتنبى ويقول لك :

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم »

ويعود الرافعى فى هذا الرد الى نهجه الذى سار عليه فى كل مناظراته ومناقشاته ... الى أسلوب السخرية والتحدى الا أن الخلاف بين الاديبين ، لم يكن خلافا يمس وجهة نظر فى أمر من الأمور ، ولكنه اختلاف جذرى عميق فى « طريقة » فهم الأمور ، فهو خلاف بين نهجين متباعدين ، فلقد كان طه حسين ، يمثل النظرة الأوربية الى الأشياء ، وهى نظرة متحررة تعتمد على أحدث ما وصلت اليه الحضارة الأوربية من تقدم أدبى وعلمى ، وكان الرافعى — كما ذكرنا من قبل — يمثل الثقافة التراثية ، والنظرة السلفية ، ومن هنا كان الخلاف العميق بينهما ، وهو خلاف أصيل فى هذه الحقبة من عمر الوطن ، فالرافعى يمثل الجانب المحافظ من وجدان الأمة المصرية ، التى أعادت نشر التراث وتمسكت به محافظة على قوميتها العربية ، ووقفت — ممثلة فى مفكريها وكتابها من أمثال الرافعى — وقفة المدافع عن كيانه ونفسه ضد التيارات الغربية الوافدة فيها يمس الثقافة عامة والأدب خاصة ، بل فيما يمس طرق التفكير والتذوق والحياة جميعا . وليس هناك ما يمكن أن يمهد أرضا مشتركة — كما نقول فى هذه الأيام — بين الرافعى وطه حسين ، لأنهما مدرستان متناقضتان متقابلتان فى الثقافة والفهم والتذوق ، فليس بغريب اذن أن تتمادى المناقشة ، فتصل الى الاتهام بالكفر والالحاد ، فهذه هى الحافة التى يجب أن يصل اليها النقاش ، بل ليس بغريب أن يصل الأمر الى الحكومة والى البرلمان كما حدث فعلا ، ثم الى القضاء ، ذلك أن أدبنا ولغتنا لهما ارتباط وثيق بالدين الاسلامى ، ولعل رأيا يقوله أديب فيه قدر من الجرأة ، أو يخرج فيه على الاجماع ، يحدث من النقاش ، ويثير من البلبلة ، ما يدل على شدة ارتباط لغتنا وأدبنا بديننا .

وليس ببعيد ما كتبه السيد حسن القاياتى ، حينما وازن بين قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة » ، وقول العرب « القتل أنفى للقتل » ، فأبدى رأيه فى هذه المسألة .

وقد حدث أن أرسل الأستاذ محمود محمد شاكر ، رسالة الى الرافعى ، يخبره بأمر هذه الكلمة ، فهاج الرافعى ، وكتب مقالا بعنوان (كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة) ، فاذا علمنا أن حسن القاياتى دينى الثقافة ، فما بالنا لو كان كاتب هذه الكلمة رجل مدنى الثقافة ؟

لقد أثارت هذه المسألة جدالا بين طائفة من الأدباء ، منهم عبد العزيز الأزهرى ، ومحمد اسعاف النشاشيبى . ولعل مما جعل المسألة أكثر حساسية ، أن محرر الجريدة التى نشر فيها القاياتى كلمته كان طه حسين .

الى هذا الحد كان ينظر الى الآراء التى قد تخالف العرف أو الاجماع ، ولو كانت سليمة النية ، ليس وراءها مقصد سيىء . ولعل هذا يرجع الى حساسية هذه الفترة من عمر وطننا ، فقد كانت الأمة تقف أمام غزو حضارى غربى ، فوقفت مدافعة عن تقاليدها ونظمها وأدبها دفاعا مستميتا .

وقد كان الرافعى ومن تثقفوا ثقافته ينظرون الى كل وافد من أوروبا سواء أكان شخصا أم كتابا أم رأيا نظرة الريبة وعدم الاطمئنان ، على الرغم من الاقبال على الحضـــارة الأوربية علما وثقافة وسلوكا وعادات الخ .. وهو شىء صحى فى كيان كل أمة ناضجة ، فما كل طارىء جديد بصالح للتقليد أو الاقتباس .

ولعل المعركة الضارية التى قادها الرافعى ضد طه حسين هى معركة الشعر الجاهلى ، فلقد كان طه حسين أستاذ الأدب العربى فى الجامعة المصرية ، يحاضر طلبته فى الشعر الجاهلى ، وجمع طه محاضراته وأخرجها فى كتـــاب بعنوان (فى الشـــعر الجاهلى) ، اتبع فيه منهج الشـــك الديكارتى ، فأنكر الشعر الجاهلى ، وبين أسباب اختلاقه ، واتبع منهجا علميا فى باب

تأليف الكتب ، كان جديدا بالنسبة الى البيئة الأدبية المصرية فى ذلك الوقت ، واختلف الناس فى الكتاب الجديد ، بعضهم يرى فيه الكفر البحت ، وبعضهم يرى فيه الاسراف فى حرية الرأى ، وبعضهم يرى أنه نهج جديد فى النظر والبحث فى أدبنا القديم ، أما الذين رأوا فيه الكفر البحت ، فهم الذين كانوا ينظرون بعين الريبة الى جريدة (السياسة الأسبوعية) ، التى كان يصدرها الأحرار الدستوريون ، وكان للجريدة نهج جديد فى فهم الأدب ، فالقائمون عليها تخرجوا فى جامعات أوروبا ، ولهم فى الأدب رأى ، يخالف رأى السلفيين ، ومن كتابهم محمد حسين هيكل وطه حسين ، والرافعى من هؤلاء الذين يناهضون اتجاه الجريدة ، ولا يتفقون معها على رأى ، لا مكابرة أو عنادا ، ولكنه ـ كما ذكرنا قبلا ـ اختلاف جذرى فى منهج التفكير وزاوية الرؤية ، فكان طبيعيا جدا أن يثور الخلاف بين المدرستين . ولا ننسى أن أحد الكتاب كان قد نصب الرافعى زعيما للمذهب القديم ، فى مقال كتبه فى مجلة الهلال عام ١٩٢٣ ، ومن هنا تهيأت أسباب المعركة .

كان أول أمر الرافعى بكتاب طه حسين ، ما كتبه عباس فضلى القاضى فى (السياسة الأسبوعية) ، وما كتبه الأمير شكيب أرسلان فى (كوكب الشرق) ، فكتب الرافعى مقالا أتبعه بثلاثة بعده ، دافع عما مس الدين والأدب فى رأيه ، وحاول شيئا من التجريح عرف عنه ، وكان اتجاه الرافعى ـ غضبة للدين ـ أن استعدى المسئولين فى الحكومة ورجال الأزهر ليحولوا بين طه حسين وبين نشر آرائه بين طلبة الجامعة . ووصلت المسألة الى البرلمان ، والى النيابة العامة ، وكان الرافعى ينشر مقالاته فى (كوكب الشرق) وهى جريدة الوفد ، وطه حسين وقتئذ من كتاب الأحرار الدستوريين ، عدو للوفد ، وخصم لسعد زغلول زعيم الأمة ، ومن هنا كانت الثورة على طه حسين . صحيح أن

الرافعى لم تكن له صلة بالسياسة والسياسيين ، ولكن هجومه على طه حسين فى ذلك الوقت ، تلون عند الناس بلونهم الوفدى المناهض للأحرار الدستوريين ، أما موقف طه حسين ، فقد آثر — نزولا على رأى المسئولين من أعضاء حزبه الحاكم وقتئذ — أن يدع العاصفة تمر ، وكل مافعله ، هو أن كتب خطابا الى مدير الجامعة ، يشهد فيه أنه مسلم ، مؤمن بالله وكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر ، ولكن الرافعى استمر فى هجومه ، يناصره الدكتور زكى مبارك .

وقد أحدثت مقالات الرافعى اهتماما كبيرا بهذه القضية ، ويحكى العريان أنه كان وبعض زملائه من الطلبة ، يمشون من « المنيرة » الى «باب اللوق» حتى يستطيعوا شراء (كوكب الشرق) المخصصة لحلوان فى الصبيحة الباكرة ، ليطلعوا على ما كتب الرافعى ، تعجلا منهم ، ورغبة فى معرفة تطور هذه القضية الأدبية التى شغلت أذهان الناس .

ومثلما فعل طه حينما جمع محاضراته فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) فأحدث هذه الضجة ، فعل الرافعى ، فقد جمع مقالاته فى الهجوم على هذا الكتاب وصاحبه ، وأسماها (تحت راية القرآن) .

ولقد ظلت الخصومة بين الرافعى وطه حسين حتى مات الرافعى ، الذى كان اذا قرأ مقالا لطه يرى انه يعنيه ، وحدث أن ثارت فى الجامعة مسألة المسجد والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، فكتب الرافعى مقالا غمز فيه طه حسين ، وأراد أن يكمله بمقال آخر عنوانه (شيطان وشيطانة) ، ولكن الزيات لم ينشره ، رعاية لصديقه القديم طه حسين ، واغتاظ الرافعى لذلك غيظا عظيما .

وقد أفتن الرافعى فى التهكم على طه ، فأنشأ مقالات يقلد فيها أسلوب ابن المقفع فى « كليلة ودمنة » .

ويروى من تهكمه على لسانهما مايريد ، وكان أن قدم لأولهما بقوله (عندى نسخة من كتاب « كليلة ودمنة » ليس مثلها عند أحد ، ماشئت من مثل الا وجدته فيها ، وقد رجعت اليها اليوم ، فأصبت فيها هذه الحكاية ..) .

« قال كليلة : أما تضرب لى المثل الذى قلت يا دمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة فى قدر ذراع ... الخ » . ويمضى فى تهكمه حتى يصل الى رأى دمنة فى طه حسين .

ويعود الرافعى الى أسلوب كليلة ودمنة مرة أخرى بعد ست سنوات ، وذلك حين تحتدم المعركة بينه وبين العقاد عام ١٩٣٣، فينشر فى (البلاغ) الفصل التاسع منها بعنوان (الثور والجزار والسكين) ، ثم ينشر عام ١٩٣٥ ، الفصل العاشر بعنوان (كفر ذبابة) ويقصد به مصطفى كمال وحركته الدينية .

٣ ـ مع عبد الله عفيفى :

مر بنا ما كان من أمر بين الرافعى والابراشى باشا ، حين كان الرافعى شاعر الملك ، وقد حدث أن كتب الرافعى قصيدة فى احدى المناسبات الملكية ، نشرت وبجوارها قصيدة أخرى لعبد الله عفيفى المحرر العربى بديوان (جلالة الملك) . وحينما رأى الرافعى ذلك ثار ، وعلم أنها دسيسة من الابراشى باشا ، وأن الرجل أسرها فى نفسه . وقرأ الرافعى قصيدة الشاعر المرشح لانتزاع لقب (شاعر الملك) وقال : « أيريد الابراشى أن يقرن شعره بشعرى ؟ أيرانى واياه على سواء ؟ أم تراه يمهد له حتى يخلعنى عن مرتبة (شاعر الملك) ليجعله مكانى .. ؟ »

وابتدأ الرافعى يفكر فى الانتقام ، ففاتح اسماعيل مظهر برغبته فى نقد شعر عبد الله عفيفى ، وأفسح مظهر للرافعى صفحات مجلته (العصور) ، وكتب الرافعى مقالاته (على السفود) ، ينقد ويتهكم ويسخر ، متناولا شعر عبد الله عفيفى فى مدح الملك . وكان من الممكن أن ينقد الرافعى شعر عبد الله عفيفى الا ما قاله فى الملك ، وبذلك يكون قد بين ـ على قدر براعته فى النقد ـ ضعف شاعريته أو ضحالتها ـ وهنا يكون جليا أن عبد الله عفيفى الشاعر المقصوص الجناح أعجز من أن يكون (شاعر الملك) .

ولكن الرافعى لجأ مباشرة الى نقد الشعر الذى مدح الملك به ، ومن هنا كانت الهوة التى انزلق اليها ، ولم يكن نشره مقالاته هذه دون توقيع بالأمر الذى يبعد عنه الشبهة ، فان أسلوبه نم عليه ،

أو نم هو عن نفسه فى حديثه بين خاصته ، وجاءه رجل من القصر يقول :

« كيف تكتب عن شاعر من شعراء الملك هذا الكلام ؟ أتريد أن ينفض الشعراء عنه ؟ أم هى دسيسة أدبية هدفها انفضاض المخلصين من رعيته عن بابه ؟ .. »

ولم يكن الرافعى يقدر ذلك ، وما طاف بذهنه أنه بنقده لعبد الله عفيفى ، يجرح شاعرا له حظوة عند رئيس الديوان الملكى ، ولعله ظن أن عدم توقيعه على المقالات يعفيه من النتائج . على أن الرافعى — على الرغم من سوء علاقته بالابراشى كما رأينا — لم يسلم من تهمة مضحكة ، هى أنه صنيعة الابراشى ، وانه وسيلته الى الطعن فى سلطة الأمة .

الا أن المعركة ظلت من طرف واحد ، فان عبد الله عفيفى ظل صامتا ، لا يدافع عن نفسه ، وان شكا الى خاصة أصدقائه وطلابه فى كلية اللغة العربية بالأزهر .

حتى اذا مات أحمد شوقى عام ١٩٣٢ ، كتب الرافعى مقالته المعروفة عن شاعريته ، وأرجع نبوغ شوقى الى دمائه غير المصرية ، وانها هى التى حققت له هذا التفوق الشعرى ، لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على انضاج المواهب الشعرية . وهو رأى جرىء حرى بأن يقيم معركة بينه وبين شعراء مصر . وتعددت الآراء فى هذا المقال ، فالشعراء المصريون يقولون : هذا رجل يريد أن ينكر علينا الشاعرية ..

ويقول سلامه موسى : ان الرافعى ليس منا .

ويهتبل الفرصة عبد الله عفيفى ، فيرد الرافعى ردا غير مباشر ، فيكتب فى (البلاغ) مقالات تحت عنوان (مصر الشاعرة) ،

متحدثا عن شعراء مصريين مختلفين عبر الأجيال ، ليدلل على أن الشاعرية المصرية بخير ، وان رأى الرافعى لا يسنده دليل .

ويذكر العريان أن الرافعى كان فى جلسته بالمقهى ، يعلق على النساء المارات ، فهن شواعر ، ومنهن من تكون فى رأيه كالمتنبى أو البحترى أو أبى تمام ، أما المنفرة فهى عبد الله عفيفى !

وللرافعى بعد ذلك معارك صغيرة ، منها نقده للبيان الذى نشره مجمع اللغـــة العربية ، وكان الرافعى يود أن يكون من أعضائه ، الا أن صممه أقد حال بينه وبين ما يريد ، وكان نقد الرافعى منصبا على لفظة (حظى) بمعنى (ظفر) ، فقد كتب فوق توقيع (أديب صغير) نقدا مرا لاستعمال هذا الفعل بهذا المعنى ، وعلى عادته تهكم وسخر ، ورد حسين والى عضو المجمع على نقد الرافعى ، ورد الرافعى على الرد ، حتى جاءه أن ينهى المعركة فسكت .

ولعلنا اذا تدبرنا المعارك القلمية التى دارت بين أدباء الجيل الماضى ، لخرجنا بنتيجة مؤسفة ، هى أنها أذكت عداوات قامت بينهم ، وهى عداوات لم يستطع الموت أن ينال منها ، والمشاهد أن الأديب « المشاغب » منهم ، كان اذا انتقل الى جوار ربه لم يجد من يكتب عنه كلمة ، أو يشير اليه ولو اشارة يمليها الحق أو الوفاء أو الروح العلمية ، ومن هنا كان اغفال ذكر الرافعى وزكى مبارك .

الباب الخامس

مؤلفاته

١ ـ دواوينه

٢ ـ تاريخ آداب العرب

٣ ـ حديث القمر

٤ ـ المساكين

٥ ـ رسائل الأحزان ـ أوراق الورد ـ السحاب الأحمر

مؤلفاته :

كان الرافعى أديبا ثرار الانتاج ، وهذه هى مؤلفاته مرتبة حسب تاريخ كتابتها :

١ ــ ديوان الرافعى ــ ثلاثة أجزاء ــ صدرت بين سنتى ١٩٠٣ و ١٩٠٦ .

٢ ــ ديوان النظرات ــ صدر عام ١٩٠٨ .

٣ ــ ملكة الانشاء ــ أعده للنشر عام ١٩٠٧ ، ولكنه لم ينشر ، وهو كتاب يحتوى على نماذج انشائية غرضها تعليم الشباب أسلوب التعبير الجيد ، وقد ضاعت أصوله ، ولم يبق منه الا مانشره الرافعى فى ديوانه (النظرات) .

٤ ــ تاريخ آداب العرب ــ صدر عام ١٩١١ .

٥ ــ اعجاز القرآن ــ وهو الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب ، طبع ثلاث مرات ، أخراها على نفقة الملك فؤاد عام ١٩٢٦ .

٦ ــ حديث القمر ــ كتبه بعد رحلته الى لبنان عام ١٩١٢ .

٧ ــ المساكين ــ كتبه عام ١٩١٧ .

٨ ــ نشيد سعد باشا زغلول ــ كتيب عن نشيده (اسلمى يا مصر) الذى أهداه الى سعد زغلول عام ١٩٢٣ .

٩ ــ النشيد الوطنى المصرى (الى انعلا) .

١٠ ــ رسائل الأحزان ــ كتبه عام ١٩٢٤ .

١١ ــ السحاب الأحمر ــ صدر بعد رسائل الاحزان بأشهر .

١٢ ــ المعركة تحت راية القرآن ــ صدر عام ١٩٢٦ .

١٣ ــ على السفود ــ نشرته مجلة العصور ، ولم تكتب عليه اسم الرافعى ، واكتفت بان قالت انه بقلم (امام من أئمة الأدب العربى) .

١٤ ــ أوراق الورد ــ وهو تكملة لكتابيه (رسائل الأحزان ، السحاب الأحمر) .

١٥ ــ وحى القلم ــ وهو مجموعة من مقالاته بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ، وبينها مقالات أخرى ، وقد طبع منه جزءان .

وله كتب أخرى لم تطبع أهمها :

١ ــ الجزء الثالث من تاريخ العرب ــ وهو تام التأليف .

٢ ــ أسرار الاعجاز ــ وفيه فصول تم تأليفها .

٣ ــ ديوان أغانى الشعب ــ وهو ديوان عبر فيه عن كل طائفة من طوائف الشعب وقد نشرت بعض قصائده .

٤ ــ الجزء الثالث من (وحى القلم) وفيه مقالات نشرت فى الرسالة وفى غيرها ، وما لم ينشر من قبل .

٥ ــ الجزء الأخير من ديوانه ــ ويجمع القصائد التى قيلت بين سنتى ١٩٠٨ ، ١٩٣٧ وسنتحدث فى ايجاز عن أهم هذه المؤلفات :

٢ ـ دواوينه :

أول مؤلفات الرافعى ديوانه الذى اسماه باسمه (ديوان الرافعى) . وقد صدر الجزء الأول منه عام ١٩٠٣ م . وقد قسمه الى أبواب .. الأول فى التهذيب ، والثانى فى المديح ، والثالث فى الوصف ، والرابع فى الغزل ، والخامس فى أغراض مختلفة وفى المقاطيع ، والسادس فى الرثاء ، وقد ذيله بما كتب عنه كشاعر دعاية له ، وكان أصحاب قصائد التقريظ : البارودى ، وحافظ ابراهيم ، والكاظمى ، والمنفلوطى ، والشيخ حسن المهدى ، وابن عمه محمد محمود الرافعى .

وقد طبع الجزء الثانى عام ١٩٠٤ م ، وكتب الرافعى مقدمة له عن (سرقة الشعر وتوارد الخواطر) ، وهو كالجزء الأول فى ستة أبواب :

١ ـ فى التهذيب والحكمة .

٢ ـ فى النسائيات .

٣ ـ فى الوصف .

٤ ـ فى المديح .

٥ ـ فى الغزل والنسيب .

٦ ـ فى الأغراض والمقاطيع .

وكسابقه الأول ، ذيله بقصائد مدح وتقريظ من البارودى والكاظمى ، ومحمد محمود الرافعى ، وكان مما قاله البارودى :

لمصطفى صـــادق فى الشعر منزلة
أمسى يعاديه فيها من يصـــافيه

صـــاغ القريض باتقان فان تليت
صـــــدوره علمت منهـــا قوافيه

مهذب الطبع ، مأمون الضمير اذا
بلـــوته كان باديه كخـــافيه

حاز الكمال فلم يجنح لمنقبـــة
فلست تنعتـــه الا بمـــا فيـــه

ومن قصيدة الكاظمى قوله :

الشـــعر فوض أمـــره ونمـــاك فى تفويضـــــه
ان الذى أعطـــاك أعطى القـــدح كف مفيضـــــه
حلق بقـــادمة الجنــــاح وطـــر بغـــير مهيضـــــه
ديوان شـــعرك حير الشـــــعراء فى تقريضـــه

وصدر الجزء الثالث من ديوانه عام ١٩٠٦ ، وبه مقدمة بعنوان (نوع من نقد الشعر) . وذيله كعادته بقصـــائد تقريظ لحافظ ابراهيم ، وابراهيم معلوف ، وعمر تقى الدين الرافعى ، ومحمد محمود الرافعى . وفى عام ١٩٠٨ أصدر (النظرات) ، وقدمه ببحث عن (حقيقة الشعر) .

يقول العريان (ليس كل شعر الرافعى فى دواوينه ، وليس كل مافى دواوينه يدل على فنه وشاعريته ، فالجيد الذى لم ينشر من شعر الرافعى أكثر مما نشر ، وقد كان فى نية الرافعى ــ لو أمهلته المنية ــ أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر مافى دواوينه ، ثم يخرج منها ومما لم ينشر ديوانا واحدا مهذبا مصقولا ، ليقدمه هدية منتقاة الى الأدباء والمتأدبين ، ولكن الموت غاله ، فبطل أمله وبقى عمله ..) .

ومن نماذج شعره الباكر قوله فى عبد الرحمن الكواكبى :

ولو رفعوا فوق السـماكين قبره
لما بلغوا من حقـه بعض واجب

فقـد كان ان هز اليراع رأيتـه
يصول بأمضى من فرند القواضب

ولم يك هيـابا اذا حمى الوغى
ورفرفت الأعـلام فوق الكتائب

٢ — تاريخ آداب العرب :

في عام ١٩٠٩ ، كتب الرافعي مقالا في (الجريدة) ، ينعى فيه على الجامعة المصرية التي أنشئت عام ١٩٠٧ ، بعض مناهجها في تدريس الأدب وتاريخه ، فكان أن أعلنت الجامعة عن تأليف كتاب في تاريخ الأدب ، وحددت مدة سبعة أشهر ، وجائزة للكتاب الفائز قدرها مائة جنيه ، ثم رجعت الجامعة فمدت الأجل الى سنتين ، ورفعت الجائزة الى مائتي جنيه . وكتب الرافعي يسخر من الجامعة ، ومن المدة المحددة والجائزة المتواضعة . وكان يطمح في أن يؤلف الكتاب ويعهد اليه بتدريسه ، ولذلك قال « انهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عندهم ، ولا فضل لدارهم الا أنها مصدر التلقين ، فاذا طبع الكتاب ، صارت كل مكتبة في حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذي يلقيه ، والا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون اليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفالة الأستاذ القدرة على القاء دروسه دون القدرة على استنباط الدرس ، واستجماع مادته ، حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر .. » .

ألف الرافعي كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ الى آخر ١٩١٠ ، وفي سنة ١٩١١ ، أتم طبع الكتاب على نفقته قبل الأجل الذي حددته الجامعة ، ولذلك لم يتقدم به الى المسابقة ، وقد استفاد الرافعي في تأليفه من مكتبته ومكتبتي الجامع الأحمدي والقصبي . وقد ساعده في طبعه مدير الغربية الأديب محمد محب باشا ، بما قدم من معونات أدبية ومادية . ويحتوي الجزء الأول من الكتاب على

بابين : أولهما بعنوان (فى تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك ..) وثانيهما بعنوان (فى تاريخ الرواية ومشاهير الرواة ، وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة ..) . ويحدد الرافعى منهجه فى تأليف الكتاب فيقول :

(رأينا الطريقة المثلى أن نذهب فى تأليفنا مذهب الضم لا التفريق ، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التى هى معانى الحوادث، لا على العصور ، فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب ، كما يفعلون ، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه الى منتهاه ، متقلبا على كل عصوره ، سواء اتسقت أم افترقت ، فلا تسقط مادة عن موضعها ، ولا تقتصر على غير حقيقتها ، ولا تلجأ الى غير مكانها ، ثم لا يكون بعد ذلك فى التاريخ الا التاريخ نفسه ، لا مايزين به العبارة المونقة ، ولا ما توصل به الحقائق القليلة من تصورات الخيال وشعر التأليف ..) .

وحينما صدر الكتاب ، نقده طه حسين ، وكان طالبا بالجامعة ، وذلك فى مقال نشرته (الجريدة) عام ١٩١٢ ، وقد أعلن فى مقاله هذا ، انه لم يفهم من كتاب الرافعى حرفا !

الا أنه عاد عام ١٩٢٦ ، فاعترف بأن الرافعى قد فطن فى كتابه لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتحال الشعر ، واضافته الى القدماء ، كما فطن لأشياء أخرى قيمة .

ويقول العريان ان كتاب الرافعى كان السبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية .

وقد لفت كتاب الرافعى أنظار الأدباء اليه ، وكان رأى لطفى السيد فيه رأيا حسنا ، فقد كتب فى (الجريدة) مقالا جاء فيه (قرأنا هذا الجزء ، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة فى بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا ، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التى

بسطها فى هذا الجزء ، الا بعـــد درس طويل ، وتعب ممل ، وأما أسلوب الرافعى فى كتابته ، فانه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا ، نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرؤه ، أقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة ، والباس المعـانى ألفاظا سابغة مفصلة عليها ..) .

وفى السنة التالية ، أصدر الرافعى الجزء الثانى من الكتاب ، وكان موضوعه ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، وفى الطبعة الثانية أسماه (اعجـاز القرآن) ، وقد طبع على نفقة الملك فؤاد . وقد كان مقال العقاد فى نقده فى جريدة (البلاغ) ، أول شرارة الحرب بينه وبين الرافعى .

وقد مات الرافعى قبل أن يطبع الجزء الثالث منه ، وقد نشره العريان بعد وفاة الرافعى بثلاثة أعوام ، وكتب له مقدمة .

٣ ـ حديث القمر :

قام الرافعي برحلة الى الشام عام ١٩١٢ ، وهناك التقى بفتاة تعمل بالصحافة ، وحينما رجع الى مصر ، كتب من وحيها كتابه (حديث القمر) . وقد يصفها فى (السحاب الأحمر) فيقول : « رأيت وجه فتاة عرفتها قديما فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف الى جمالها ثم يقف ، كنت أرى الشمس كأنما تجرى فى شعرها ذهبا ، وتتوقد فى خدها ياقوتا ، وتسطع فى ثغرها لؤلؤة ، وكنت أرى الورد الذى يزرعه الناس فى رياضهم ، فاذا تأملت شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذى يزرعه الله فى جنته .. » .

وحديث القمر يتناول مواضيع مختلفة كبعض كتب الرافعى ، وأنت لا تستطيع أن تضعه فى ثبت (المقال) أو (القصة) ، وانما هو خواطر مرسلة فى أشياء متباينة ، وهدفه أن يقدم لطلاب الانشاء نماذج من الأسلوب الأدبى ، وهو يؤكد هذا الهدف على غلاف الكتاب فيقول (وقد كتب على نمط خاص من الكتابة العربية ، يجعل طالب الانشاء بادمان قراءته وتأمله منشئا ، اذ يربى ملكة التخيل الصحيح، التى هى أصل البلاغة ، ولا بلاغة بدونها ..) .

والحديث فى الكتاب موجه الى القمر مهما تنوعت الأغراض ، وهو سجل لكثرة من الخواطر حول الطبيعة والحب والفقر والغنى والايمان والالحاد ، والزواج غير المتكافىء بين الزوجة الشابة والزوج الشيخ .. الخ .. كما ترى الى جانب ذلك قصيدة من شعره بعنوان (الشرق المريض) تبلغ ٤٤ بيتا يستهلها بقوله :

يا من لهذا المريض المدنف العانى
مـــردد النفس مـــن آن الى آن

واذا كان حديث القمر هو أول كتب الرافعى النثرية ، فانه فى نفس الوقت سجل لبواكير أدبه ، وان كانت العبارة مازالت هاربة من تمكنه الذى سيستعلن فى كتبه الأخـــرى ك (أوراق الورد) و (السحاب الأحمر) .

ومن نماذج أسلوبه فى هذا الكتاب قوله :

« الشاعر الصحيح ، رجل الكمال السماوى ، لأن الشعر اذا لم يكن مع الشرائع كان عليها ، وفى ذلك فساد كبير ، والشعراء أنفسهم كالشرائع ، تكون لمن يشـــاء أن تكون له ، وهم يحكمون النفوس بالحب ، والشرائع تحكمها الرهبة ، ولولاهم ما أعطى الناس قوة فهم التعزية ، فلم يكن لهم أن يطمئنوا لدين من الأديان ، وانك لترى الشاعر يستل جمال هذه الطبيعة كلها من نفسه الكبيرة ، ليلقى على الناس محبة منها ، كأن الطبيعة لا تجد طريقا الى النفوس الضعيفة ، الا بعد أن تصفى وتصفق فى نفوس الشعراء ، فتخرج منها كما تنبعث المعانى الغزلية الكثيرة من عينى الحسناء الفاتنة .. » .

٤ ــ المساكين :

يتحدث الرافعي في مفتتح هذا الكتاب ، انه رأى فيما يرى النائم ، انه في المطبعة وأن جامع الحروف سأله أن يكتب المقدمة ، فكتبها له . ولما استيقظ وجدها تدور على لسانه وكانت (هـذا كتاب المساكين ، فمن لم يكن مسكينا لا يقرؤه ، لأنه لا يفهمه ، ومن كان مسكينا فحسبي به قارئا والسلام ..) . وهو بعد هذه المقدمة الصغيرة التي يسميها (صفحة من الغيب) يتحدث عن كتابه هـذا فيقول (هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقـر في صفحاته مرقعة جديدة . فقد والله بليت أثواب هذا الفقر ، وانها لتنسدل على أركانه مزقا متهدلة ، يمشي بعضها في بعض ..) ، وهـو بعد ذلك يبين غرضه من وضع الكتاب فيقول (وضعت هذه الأوراق ، وكتبت فيها عن الفقر ، وما هو من باب الفقر ، لا لمحوه ، ولكن للصبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ، ولكن للعزاء عنه ، وأردت به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس ..) ، ويذهب بعـد ذلك فيقول انه يرمي بالكتاب الى عزة النفس ، والى الثقة بالله ، والى الصبر على الفضيلة ..) . ويروح الرافعي يتحدث عن الفقـر والفقراء ، والبخل والبخلاء ، والغنى والأغنيـاء ، ويدير القول فيما يتصل بالمعاني التي تقع له في هذه المناحي ، بأسلوبه المعروف عنه ، ذلك الأسلوب الجزل المحتفل بفصاحة الجملة وبلاغتها ، وهو في هذا كله ، يقابل بين الأفكار والمعاني ، ويبتدع صورا جديدة ، مثلما نراه يقول :

(.. وليت شعرى ، وذلك معنى الغنى ، هل يظن من اجتمعت له نفقة ألف سنة أنه سينال فيما بقى من عمره القصير ، لذة كلذة عيشة ألف سنة ، وانه اذا ادخر مايقوم بمائة ألف انسان ، فقد صار هو فى الأرض مائة ألف بطن ، ان حياة الغنى على هذا الوجه ، لا تكون الا موتا على طريقة الحياة .. فليس الاسراف فى جمع المال والكلب عليه ، الا طريقة دنيئة لانفاق العمر ، وليس حب المال والبخل به ، الا وجها من بغض الناس وازدرائهم ، وانما البخل فى رأى أهله وسيلة الغنى وسننه القريب ، وهو مهما احتجوا له ، وتمحلوا فيه ، وناضلوا عليه ، ليس أكثر من كونه شعورا ذا جهتين: فأما من جهة البخيل ، فهو الحب للنفس لا غير ، وأما من جهة النفس ، فهو البغض للناس لا أكثر ولا أقل ..) .

والفصل الأول من الكتاب ، تعريف بواحد من أحباء الرافعى ممن كان لهم شأن فى تاريخ صداقاته الروحية ، وهو الشيخ على وهو رجل كما يقول الرافعى عنه ــ من قرية يقال لها (ميت جناح) من أعمال مركز دسوق ، أحد مراكز مديرية الغربية . والرافعى يصفه وصف الخبرة ورؤية العين فيقول (هو رجل تراه فى ظاهره من الدنيا ، ولكن باطنه يلتحق بما وراء الطبيعة ، وكان ينبغى أن لايقوم مثله على مسرح الخلق الا ممثلا ، وأن لا يمثل الا الوجه المطلق من الحياة ، بعد أن استقصى الفلاسفة الى تمثيله كل ذريعة ، ينظر اليك كما تنظر اليه ، فأنت تتبين فى سحنته الواضحة أوصاف الجنون الهادىء ، وتعجب من منظر تلك العاصفة النائمة فى عينيه ، وهو يستجلى منك معنى الغرابة فى قدرة الله اذ أنشأك مثالا غير مفهوم ، ويطيل عجبه منك أنك على مافيك تتعجب منه ..) .

ويتدخل الشيخ على بعد ذلك فيما يتناوله الكتاب ، فهو ابتداء من الفصل الثانى ، تجرى على لسانه حكمة المتصوف العارف أمور

الحياة والأحياء ، فيكون مستهل هذا الفصل ، قال الشيخ على :
(علم الله يا بنى أن فى تاريخ الحياة سؤالا لم تزل تلقيه أطماع الناس
فى كل عصر من عصورها ..) ، وتكون نهـــايته الموعظة الحسنة
(أيها الناس ، ان الفصل بين الغنى والفقر ، من الأمور التى تتعلق
بالضمير وحده ، ورب غنى يزيد أهله بالحرص والدناءة فقـــرا ،
فانظروا فيهما بأفكار آلهية ، لا تطلب الا الفضيلة التى يمكن أن تكون
بلا ثمن ولا يمكن أن يكون شىء ثمنا لها ..) .

٥ ـ رسائل الأحزان ـ أوراق الورد ـ السحاب الأحمر :

تجتمع هذه الكتب الثلاثة فتكون محورا واحدا يدور عليه حديث الرافعى عن الحب وفلسفته فى نظره ، وفى نظر قلبه ، وان كان بعضها ـ كالسحاب الأحمر ـ يحوى مواضيع أخرى ، الا أنها تسلك ـ على هذا البعد الظاهر ـ نفس المسلك ، وان كان الحديث لا يتجه الى محبوبة للرافعى فحسب ، فهو يتنـــاول حب الزوج السجين وحب زوجه وأمه له ، كما يتناول حبه لصديقه (الشيخ على) ، وحبه واعزازه لأستاذه (محمد عبده) . وكذلك فعل مع صديق عمره وابن عمه الشيخ (أحمد الرافعى) .

وهو فى هذه الكتب الثلاثة يحتفل بعاطفـــة الحب ، ويفلسفه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، فى أسلوب مشرق مبين ، وبلاغة مرهفة ، ونمط من التعبير ينسب اليه ، ففيه من روحه ومن ثقافته ومن مزاجه الخاص .

والرافعى يلجأ الى شكل (الرسالة) فى هذه الكتب ، فيوجه الحديث الى الحبيبة حبا وعتابا وشوقا ، ثم مللا وصدا وجفاء ، ولعل ظاهرة التقصى ، وتتبع المعانى ، أكبر ظاهرة تلفت نظر الباحث ، فان الرافعى ـ على الرغم من ادارته كثيرا من المعانى وتكراره لها ـ قادر على ابتداع المعـــانى الدقيقة وتحليلها ، ترفده فى ذلك نفس متطلعة ، وحساسية مرهفة وعقلية تميل الى التحليـــل ، فتقلب المعانى على وجوهها . أما « رسائل الأحزان » فقد كتبه فى أقل من شهر ونصف شهر عام ١٩٢٤ ، وهو يحتوى على خمس عشرة رسالة

عدا المقدمة والذكرى والخاتمة ، وفيه عدد من قصائده ، وكان الرافعى قد قطع علاقته بمى ، فابتدأ يكتب هذه الرسائل .

وكل الذى كان يعنيه أن تقرأها (مى) ، وكانت هذه وسيلته فى مخاطبتها عن طريق الكتابة العلنية ، فهو لا يرسل رسالته بالبريد ، ولكنه يكتب كل ما يحب أن يقوله لها ثم ينشره فى كتاب ، ويتوقع الرد فيما تنشره هى من كتابتها .

وهو فى مقدمة (أوراق الورد) ، يقول ان القارىء يعلم من (رسائل الأحزان) أن الحبيبة شاعرة روحانية ، تسمو هى وصاحبها بالحب فوق المادة ، ولا يريدان الا وحى النفس الجميلة للنفس الجميلة .

أما « أوراق الورد » فهو أحب كتب الرافعى الى نفسه ، وأقربها اليه ، وهو كما تعودنا منه حين يخاطب الحبيبة ، يتخذ شكل (الرسالة) قالبا فنيا يعالج فيه قضايا العلاقة بين الرجل والمرأة . وهو يمثل قصة الحب كما تقع فى حياة رجل وامرأة ، فهى تنتهى فى بعض الأحيان الى قطيعة وجفاء ، وكذلك كانت قصة حب (أوراق الورد) ، التى تصور عرامة الأشواق ، وحلاوة العتاب ، وبهجة الحب ، ثم وجيعة الصد ، وألم الفراق . وهو كتاب فريد فى هذا الباب يشرح خوالج العشق ، ويفلسف الحب ، بأسلوب فيه الدقة والايقاع والامتاع .

ويشرح الرافعى فى مقدمته سبب تسميته بهذا الاسم فيقول : (هذا كتاب (أوراق الورد) ، فحدثنى من حدث فى سبب هذه التسمية قال : كانت معها ذات يوم وردة لا أدرى أيتهما تستنشى الأخرى ، فجعلت لها ساعة من حفاوتها ، تلمسها مرة صدرها ، ومرة شفتيها ، والوردة بين ذلك كأنما تنمو فى شعاع وندى ، اذ رأيتها وقد تفتحت وتهدلت ، حتى لحسبت أنها قد حالت أوراقها شفاها ظمأى . ثم تأملتها شيئا ، ثم نحت الى بصرها وقالت :

ما أرى هذا الحب الا كورق الوردة فى حياته ورقته وعطره وجماله ، ولا أوراق الوردة الا مثله فى انتشارها على أصابع من يمسها اذا جاوز فى مسها حدا بعينه من الرفق ، ثم فى تفترها على الحاح من يتناولها، اذا تابع الحاحه عليها ولو بالتنهد ، ثم فى بناء عقدها على أن تتحلل أو تذوى ان لم يمسكها مع بنائها الرقيق حذر من تكون فى يده .. لأنها على يده فن لا وردة . ثم دنت الشـــاعرة الجميلة ، فناطت وردتها الى عروة صاحبها فقـــال لها : وضعتها رقيقة نادية فى صدرى ، ولكن على معان فى القلب كأشواكهـــا .. فاستضحكت وقالت : (فاذا كتبت يوما معانى الأشواق فسمها (أوراق الورد) وكذلك سماها ...) .

وبعض رسائل (أوراق الورد) موجه الى حبيبته اللبنانية ، وأغلبها الى (مى) ، وفيه بعض من رسائلها كانت تنشره فى كتبها ، وكان الرافعى ينظر الى هذه الرسائل المنشورة فى كتبها على أنهـا موجهة اليه .

ولقد كان الرافعى حسن الظن بـ (أوراق الورد) الى درجة الفتنة ، ولذلك نراه يقول فى احدى رسائله الخاصة : (لقد قرأت (أوراق الورد) فى هذا الأسبوع ، بعد أن فرغت من قراءة رواية لشكسبير وأخرى للامارتين ، وفى ظنى أن (أوراق الورد) يرجح عليهما بكثير فى معانيه وبيانه ، ولكن هو الحظ ..) .

ويرجع ثانية ليقول (لا يوجد ما يفوقها فى اللغات الأوربية الا قطعا وتفاريق ..) .

ولعل هذا الاحساس المبالغ فيه يرجع الى أنه حدد فى رسالة من رسائله الخاصة فضل (أوراق الورد) ونواحى امتيازه — فى نظره — ... فهو يقول عنه معددا ميزاته :

١ — سد المكان الخالى فى الأدب العربى ، واعطاء العربية كتابا فى رسائل الحب وفلسفته وأوصافه ، يقابل مافى اللغات الأخرى .

٢ ــ وضع عمل حاسم ، يفصل فى النزاع بين القديم والجديد ، لأنه نزاع كلامى ، الى أن يضع أحد المذهبين عملا يعجز المذهب الآخر .

٣ ــ تطهير فكرة الحب ، وتهذيب معانيه فى نفوس الشباب ، والسمو بهذه الفكرة الى الجهة الشعرية الروحانية ، لتسمو بها بدلا من أن تسقط ، وهذا غرض تهذيبى عظيم .

٤ ــ الكتاب الأوربيون يعيبون العربية بضعف التصوير العواطف ، وأنها ليست لغة تحليل ، مع أن العربية أوسع لغات الدنيا فى هذا الباب بمفرداتها ، ولكن أين الكاتب الذى يتولى ذلك بخيال قوى واحاطة باللغة ، وادراك لدقائقها وأسرارها .

والرافعى يناقش فى مقدمة الكتاب ، وجود الرسالة الغرامية فى الأدب العربى كله ، ويمضى يناقش هذه القضية ذاكرا شواهد وأمثلة من بعض رسائل العشاق المشهورين ، ليخلص الى أنه هو الذى فتح باب هذا الفن فى العربية على كثرة العشق والعشاق ، وما تبودل بينهم من رسائل الصبابة والهيام . على أن الرافعى ــ دون شك ــ قد استطاع أن يقدم فى كتابه هذا ، نمطا من رسائل الحب يعزى اليه ، فيه روحه وأسلوبه وطريقة تفكيره . ويتضح كل ذلك فى مثل قوله :

(وكنا فى يوم من أيام الربيع ، وكل شىء حولنا يتكلم بلغة الشمس فى لمعة وضوء وجمال ، وفى الأزهار معانيها الغزلية التى بها وحدها تظهر الطبيعة فى رقة امرأة عاشقة .

وفى الهواء نسمات بليلة متعطرة قد خيمت فيها روح قبلة كأن الرياض فى نشرها الزكى مصانع يقلد فيها الربيع ضعة أنفاس الحبيبات ، وفى الزمن ذاتية واضحة ، اشعرتنى أن كل ما حولى هو تعبير يهم أن يتكلم . وكأنما سقط قوس قزح من السماء ، وماجت ألوانه بعضها فى بعض ، فغطى الأرض ألوانا شتى بأزهارها

وأعشابها . وكأن السماء مازجت قلبى فى تلك الساعة ، فأضاءته بنور الفجـــر الندى العبق النسيم ، الملون بالشفق ، المتحـــرك بالسحاب . وكنا فى صباح جميل يشعرنا بكل مافيـــه أن شمسه طلعت لنا وحدنا . وكان كل شىء يرف ويزهو كأنه طبع بقبلة من شفتيها ، وبدا الصباح عليها بمعانى الرياض وعلى الرياض بمعانيها هى ، فاجتمع نشاط الكون ونشاط قلبى ، وتقتلت كما تتقتل وقالت ضـــاحكة (لا أحبك) ، قالت وزادت فى ضحكها : أعنى أبغضك .. قلت بغض يضحك كما أرى ، قالت وزوت من وجهها ، وتكلفت العبوس قليلا : أعنى ... فابتدرتها أقول : ان تكلف وجهك ينطق بأنه لا يعنى ...) .

أما « السحاب الأحمر » ، ففيه ثورة الغضب ، وذلك فيما يمس علاقته ب (مى) . فهو فى الصفحات التى يعبر فيها عن سخطه ، يقسو على المرأة ويعيرها بلؤمها فى أفكار منثورة ، تأخذ شكل الحكم المأثورة .

يقول :

قيل لحية سامة ، أكان يسرك لو خلقت امرأة ؟

قالت : فأنا امرأة ، غير أن سمى فى الناس وسمها فى لسانها .

ويقول :

قال بعضهم لزاهد عظيم : انى رأيتك تمشى فى الجنة ..

فقال له الزاهد : ويحك .. أما وجد الشيطان أحدا يسخر منه غيرى وغيرك .

وقال رجل لامرأة : انى رأيتك الليلة فى الجنة ..

فقالت : ويحك .. تقولها من غير أن تشكر فضـــلى عليك ، مع أنى أدخلتك الجنة .

وقد ذكر الرافعى سبب تسميته الكتاب باسم (السحاب الأحمر) ، قال موجها حديثه الى سعيد العريان : (أرايت القلم الذى تراءى لى السحاب الأحمر فى نصابه بين عينى والمصباح ؟ ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر .. ألست ترى سحابا يترقرق بالدم كأن قلبا جريحا ينزف ؟

فى شعاعة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر التى تقرؤها فى « السحاب الأحمر » ..

ويستهل الرافعى كتابه بحديث عن الحب والبغض ، ثم يتحدث فى (القمر الطالع) عن ملهمته اللبنانية التى أوحت اليه (حديث القمر) ، ثم تأتى (النجمة الهاوية) ، وهو فصل كان هدفه اغاظة « مى » ، ويتحدث بعد ذلك فى شبه أسلوب قصصى عن (السجين) ، فيصوره وعربة السجن تبتعد به ، وامرأته تجرى وراءه ، وهو فى تصويره عين لاقطة تحدد الأشكال ، كما تعرى الباطن النفسى ، ويكفى أن نذكر هذه اللقطة التى يصور فيها السجين بين أهله :

(وأحاط بها أخواته الأربع ، صفر الوجوه ساهمات الخدود ، ذابلات الأعين ، كأنما تدلين الى الأرض من مشنقة ! والبنت قطعة من أمها ، ولكنها فى الحزن على أبيها أو أخيها بعده أمهات ، فهل تراها لا تستوفى فى بطن أمها الا نصف حياتها كهيئتها فى الدنيا ! ويبقى النصف الآخر فى أخيها ، فان مرض خامرها نصف الداء ، وان مات وقع عليها نصف الموت ، ولا يكون حزنها عليه الا هدة فى حياتها لا يمكن أن تبنى . أما أخو السجين ، فوقف ناحية عن النساء ، وجعل يبكى ، ويعصر عينيه ، ولا أدرى ان كانت الفطرة هى التى أبعدته عنهن حتى لا يشبههن بوجه من الشبه ولو كان دقيقا كهذه الخيوط من الدمع ، أم هو انتحى جانبا لكيلا تتصل به عدوى الضعف ، ويستطيع أن يبكى على أعين

الرجال بكاء رجل فى دمعه شىء من القوة ، أم هو انتبذ مكانه ليتكلم مع آلامه ، فان الآلام تتكلم ولكن باحساسنا ، وكان له مع أوجاع قلبه حديث طويل ..)

ثم يتحدث الرافعى فى (الربيطة) عن الزواج العرفى ، ويدير حوارا بينه وبين السيدة المتزوجة بعقد مدنى ، وهو فصل يصل فيه الرافعى الى قمة أدبه ، وسنذكره كله فى موضعه من الكتاب ، كنموذج كامل لأدبه .

ويتحدث بعد ذلك عن (المنافق) ثم عن (الصغيرين) التائهين ، ثم عن صديقه الفيلسوف الفطرى (الشيخ على) ، ثم يتحدث عن ابن عمه الشيخ أحمد الرافعى الذى مات فى مكة أثناء الحج . وينهى الكتاب بحديثه عن الشيخ محمد عبده .

يقول سعيد العريان عن (السحاب الأحمر) .. (يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة . على أن كل ما فيه لا يشير الا الى معنى واحد : هو أن قلبا وقع فى أسر الحب ، يحاول الفكاك فلا يستطيعه، فما يملك الا أن يصيح بملء فيه : اننى أبغضـــك أيتها .. أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص اذا حزبه أمره الى أصدقائه ، يستعينهم ويستلهمهم الرأى فى بلواه ، كذلك فزع الرافعى فى السحاب الأحمر ، ولكن الى أصدقاء من غير عالمه ، يستعينهم على أمره ، فهذا صديقه الشيخ على صاحب (المساكين) ، وهذا صفيه وصاحب نشـــأته الشيخ أحمد الرافعى ، وذلك أســـتاذه ومثله الأعلى فى دينه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وهذه أم ضـــل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب الى السجن ، وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدثونه جميعا حديثهم عن الحب فى رأى العين ، وفى رأى القلب ، وفى رأى العقل ..) .

الباب السادس

فنــــه الأدبى

١ ـ الرافعى كاتبا
٢ ـ الرافعى قصاصا
٣ ـ الرافعى شاعرا
٤ ـ الرافعى ناقدا

نموذج كامل من أدب الرافعى
(الربيطة) .

١ ــ الرافعى كاتبا :

حقق الرافعى ذاته ككاتب فى لون معين من الأدب شعرا ونثرا ، وهو أدب أميل الى روح التراث فى وسائل صياغته وطريقة تعبيره ، بل وفى معجمه اللفظى وزخارفه البيانية . ولذلك عد الرافعى من الكتاب السلفيين ، ولعل قراءته فى أحد الكتب القديمة قبل اقباله على الكتابة ــ كما كانت عادته ــ ساعدت طبعه الذى نما على دراسة تراث الأدب العربى ، على أن يعيش فى جو التعبير العربى الجزل والصياغة المحبوكة ، بحيث يخيل اليك وأنت تعيش معه فيما كتب ، انك تعيش مع كاتب عباسى ، وهذا سعيد العريان صديقه وتلميذه ، يقول عنه صادقا :

(تقرأ له فتحسبه رجلا من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد ، وطوى الزمان القهقرى ، ليعيش فى هذا العصر ، ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد) ..

ومن هنا تحدد السبيل أمام الرافعى ، فقد نشأ فى عائلة ذات ثقافة اسلامية ، وكانت ثقافته الخاصة تدور فى هذا الفلك ، فدار ــ من حيث لا يدرى ــ فى مدار التراث مفهوما واتجاها ،ولذلك كان الرافعى كاتبا اسلاميا ، يدافع عن الاسلام والعروبة والتقاليد الشرقية مدافعة الغيور المتحمس .

وهو نفسه يقول (يخيل الى دائما انى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ..) .

ولقد أدى الرافعى دوره فى زمنه ، فقد كانت البلاد فى حاجة الى أمثاله من الغيورين على الخلق والدين والتقاليد ، فى وقت

اتجهت البلاد فيه ناحية الغرب لا تعرف ما تأخذ منه ولا تدع ، فكان هو وأمثاله صمام الأمان الذى خفف من غلواء الانكباب الأعمى على الأخذ من حضارة الغرب وأهلها .

على انه اذا كان الرافعى قد سلك مسلك الكتاب العظام فى العصر العباسى بشقيه ، واستطاع أن يتمثل التراث ، فلن يدهشك اذن أن تراه فى عرض فكرته يلجأ الى ما لجأ اليه بعض الكتـــاب القدامى من الاتكاء على علم النحو ، يذكرون بعض مصطلحاته أو تقنيناته فى كلامهم تندرا واظهارا للثقافة ، فستراه يقول (وبقيت « لويز » تتربص به الأجل ، فكانت له كحرف التسويف) أو (ورآها وقد أخذت زخرفها وازينت ، واهتزت وربت ، صار منها كحرف الجر ، لا يريد أن يــكون الجـــار والمجرور (متعلقين) .. أو (وما جاءت به السعادة وما كان من ورائه حبذا وليت ، وما أعانت عليه لعل وعسى ، ثم كان وأخواتها ، وان وبناتها ، ثم أنا وأنت وهو ، ثم ما انعطف على هذا النحو أو تفرع منه ..) أو (وكم من قد أهيف كالألف لا يرى الا شيخا أعجف كالهمزة .. وهنا انتبهت « لويز » الى زوجها المتهدم الذى هو همزة القطع ..)

والرافعى نفسه يحدد أســـاس أدبه حينما ينصح « أبا رية » فى مفتتح حياته كأديب بقوله فى احدى رسائله اليه :

(أنت فى حاجة الى الأسلوب ، اذ هو وحـــده الذى يظهر الكاتب) ، ويؤكد هذه النصيحة فى رسالة أخرى فيقول (لا تنس أن الغرض الأول هو الأسلوب) ثم يأتى الغرض الآخر مما لا بد فيه من الدرس العلمى فى كتب كثيرة ، فاجتهد فى مادة الأسلوب ، فانها هى المظهر وبها التمييز بين الكتاب ..) . وفى رسالة ثالثة ينصحه أن يقرأ (كليلة ودمنة ، والأغانى ، ورسائل الجاحظ ، وكتاب الحيوان ، والبيان والتبيين ، وتفقه فى البلاغة بكتاب المثل السائر ، ثم عليك بحفظ الكثير من ألفاظ كتـــاب نجعة الرائد

لليازجى ، والألفاظ الكتابية للهمذانى وبالمطالعة فى يتيمة الدهر للثعالبى .. الخ ..) .

ولا شك أن هـذا المنهاج الدراسى الذى ذكره لأبى رية قد سار عليه هو نفسه فى مستهل حياته الأدبية .

وقد كان الرافعى يلم باللغة الفرنسية الماما لم يكمله ، ولو تابع دراسته لهذه اللغة ، وحقق لنفسه قدرة على الاطلاع على آدابها لتغير اتجاهه تفكيرا وتعبيرا ، والذين أجادوا لغة أجنبية ، وزودوا أنفسهم بحصيلة من ثقافة الغرب فوق تمكنهم من تراثهم الأدبى القومى ، كانوا الرواد الأوائل وبناة صرح النهضة الأدبية الحديثة ، أمثال طه حسين ولطفى السيد والعقاد والمازنى وأبى شادى ومحمد حسين هيكل وأضرابهم . ولقد أحس الرافعى أن هناك ألوانا من الثقافات لا يعرفها ، فحاول الاقتراب منها على قدر استطاعته ، فقد طلب من أبى رية أن يشترى له (أحزان فرتر) ترجمة أسعد داغر ، ولكن خاب ظنه ، فقد كان يريد أن يرى فيه (أفكار) المؤلف ، وقد قال عنه انه كتاب عامى ، ولا خير فى أكثره . وهو يطلب منه أيضا — وكان أبو رية يستشيره — أن يقرأ « جمهورية أفلاطون » لأنها — كما يقول — كانت سبب نبوغ كثيرين ، كما نصحه بشراء كتاب « أناتول فرانس فى مباذله » لأن لغة شكيب فى ترجمته — كما يقول أيضا — موفقة فى ألفاظها .

الا أن قراءة الرافعى لبعض الأدب الغربى المترجم (وكان أغلب ما قرأ فى القصص والروايات) كانت ضئيلة الى الحد الذى لم تترك فيه أثرا .

ولسنا نقول هذا لننتقص من الرافعى ، فكل ميسر لما خلق له ، ولقد حقق الرافعى ذاته فى اللون الذى عرف به ، وان كان لونا مرحليا ، لأنه يقوم أساسا على براعة الأسلوب وجمال الانشاء أكثر ما يقوم .

أقول ان الرافعى لم يستفد مما قرأ فى باب القصة والرواية الغربية ، فانك لتجد أثر ثقافته الدينية فى أدبه واضحا فى الوقت الذى لا تستطيع أن تجد أثرا لاطلاعه على المترجمات ، وانك لواجد اقتباسات قرآنية فى مثل قوله :

(حتى لتحسب الشعراء من النحل ، تأكل من كل الثمرات فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ..) أو قوله (كأن هذا الحب قد ضرب بيننا وبين الحقائق ، بسور ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قبله العذاب ..) ، أو قوله يخاطب القمر (أتذكر ، وقد رأيتك ثمة قريبا من الحبيبة ، تصب عليها النور حتى خيل الى انها احدى الحور العين ، متكئة فى جنتها على رفرف خضر ..) أو قوله (فأينما مد الانسان عينيه رأى لفظا كالاشارة أو اشـــارة كاللفظ ، ولكن قتل الانســـان ما أكفره ..)

أو (واذا الأرض قد ثارت بأهلها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) .

وهو يشير فى هامش ديوانه الى انه يقتبس بعض معانيـــه وصوره من القرآن الكريم . يقول :

وكم زلزلت دورهـــم   فخـــر عليهم السقف

ويشير فى الهامش أن فى بيته اقتباسا من قوله تعالى : (فخر عليهم السقف من فوقهم وآتاهم العذاب) وكذلك يفعل فى بيته الذى يقول فيه :

واصبر على اللغو صبر قوم   مروا كراما غـــداة مـــروا

فيشير فى الهامش الى أنه نظر الى قوله تعـــالى : (واذا مروا باللغو مروا كراما ..) .

فهو متأثر بثقافته الدينية ، متابع للنهج الذى سلكه كثير من الكتاب والشعراء القدامى ، فى تحلية كلامهم ببعض معانى وصور القرآن الكريم . والرافعى يتفنن حسب مفهومه البلاغى القديم فى خلق التعابير .. يقول (لقد تراخى الزمن بى وبها فلو عددت مائة وخمسين قمرا منذ فارقتها ..) وذلك بدلا من أن يقول مائة وخمسون شهرا .

ويقول (فاختاج الذى هو فى صدرى) بدلا من أن يقول قلبى .

ويقول (سل الشيخ الفانى الذى أوفى على المئة ، فأصبح عمره فى الانسانية صفرين الى عود ..) ، وهو يشرح جملته السابقة فى الهامش فيقول (المئة هكذا « ١٠٠ » ، والشيخ الفانى كالعود من العظم) .

وهو يلجأ الى « الجناس » فى مثل قوله :

وغوثى حين يخذلنى نصـــيرى
وغيثى ان غـــدا ربعى جديبا

وقول :

أو انشدوا المجنون بعض نسيبه
لنسى به ليـــلى فلم يتفـــجع

وهو يقول فى الهامش شرحا لما فى البيت من نكتة بلاغيـــة (التجنيس بين « نسيبه » و « نسى به » هو الذى يسمونه المفروق لاتفاق الكلمتين لفظا لاخطا ، ولم يسبق شاعرنا اليه فيما نعلم ..) ، وهى لعبة زخرفية قديمة ، شواهدها كثيرة ، وبخاصة فى أدب عهود الانحطاط .

وهو يرجع ليشرح (النكتة) فى قوله :

زعم الوشـــاة بأننى لك صارم

أو ما رأيت لكل واش مصرعا

فيقول فى هامش ديوانه (فى هذا البيت « الاستخدام » ، وهو اطلاق لفظ مشترك بين معنيين ، ثم يؤتى بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ، ومن الآخر المعنى الآخر ، وقد يكون اللفظان متأخرين عن اللفظ المشترك ، وقد يكونان متقدمين ، وقد يكون المشترك بينهما كما هنا ، فان لفظة « صارم » مشتركة بين معنى الهاجر والسيف ، وقد أريد المعنيان جميعا ، والفرق بين الاســـتخدام والتورية أن الاستخدام ارادة المعنيين ، وأما التورية فارادة أحدهما، وهنا الاستخدام فى لفظة « صارم » لم يسبق اليه ..) .

لقد كان الرافعى يتعب نفسه فى تصيد هذه الألاعيب الزخرفية، وهو يفصح عن نفسه فى احدى رسائله الخاصة فيقول (ان مدار العبارات كلها على التخيل وتصوير الحقائق بألوان خيالية لتكون أوقع فى النفس ، ومن هنا كان الذين لا معرفة لهم بفنون المجاز أو لا ميل لهم الى الشعر لا يميلون الى كتابتى ، ولا يفهمونهـــا حق الفهم ، مع أن المجاز هو حلية كل لغة وخاصة العربية ، ولا أعد الكاتب كاتبا حتى يبرع فيه ، وهذا الذى جعلنى أكثر منه مع انه متعب جدا ..) .

وقد يصل لعبه بالألفاظ فى بعض الأحيان الى حد من النجاح يستحسن ويستجاد ، مثل قوله لأبى رية فى احدى رسائله (ولعله يخرج من أطمار أبى رية شيخ يستغاث به ، فان لم يأت ، فلا أقل من شيخ لا يستغاث منه ..) .

وتعلق الدكتورة نعمات فؤاد على رسالة فى العتاب كتبهـــا الرافعى على هذا النحو (فان كان قلبك يا سيدتى شيئا غير القلوب ، فما نحن شيئا غير الناس ، وان كنت (هندسة) وحدها

فى بناء الحب ، فما خلقت أعمارنا فى هندستك للقياس ، وهبى قلبك خلق (مربعا) ، أفلا يسعنا (ضلع) من أضلاعك أو (مدورا) ، أفلا يمسكنا (محيطه) فى (نقطة) من انخفاضه أو ارتفاعه .. ما بال كتابنا يمضى (سؤالا) من القلب ، فيبقى عندك بلا (جواب) ، و (نبنيه) نحن على (حركة) قلوبنا ، فتجعلينه أنت (مبنيـــا على السكون) ثم (لا محل له من الاعراب) ، لقد هممت أن أعاقب القلم الذى كتبت به اليك ، فأحطم سنه ، واجعله من ناحيتى فى خبر (كان) ، حتى لا يبقى من ناحيتك فى خبر (انه) .. .

فتقول ان الرافعى حين كتب رسالته اصاحبته ، لا بد قد قرأ لساعته كتاب (تحفة أهل الفكاهة) الذى ضمنه مؤلفه (صورة جواب لعالم نحوى) ، وذكرت الجزء التالى من الكتاب للتدليل على الشبه بينه وبين رسالة الرافعى ، (سلام مبتدأ أحواله ، يخبر عن مكنون أقواله ، ويظهر الشوق من ضمير معانيه ، وتتم الصلات بعوائد مبانية . سلام مرفوع ناشىء عن قلب نصب نفسه لمحبة سيده ، فهو لذلك مخفوض موضوع الخ..)

والمسألة فى حقيقتها لا ترجع الى كتاب (تحفة أهل الفكاهة) أو غيره ، فاستعمال بعض مصطلحات العلوم فى الأسلوب الانشائى ، وبخاصة علم النحو ، أمر شائع معروف فى كتابات المتأخرين ؛ وبخاصة ابان الاضمحلال الأدبى الذى عرفته الأمة العربيـــة ، وبوسعنا أن نذكر منه شواهد كثيرة ، نرى أن لا مجال لذكرها هنا . وقد كان الرافعى يظن — كما ظن سابقوه — أن استعمال هـــذه المصطلحات ، يدل على براعة انشائية ، وثقافة واسعة بجانب خفة ظله .

ويتصل بهذا اللعب اللفظى الذى يمكن أن يعتبر من خصائص أسلوب الرافعى لشيوعه فى كتاباته قلبه للمعنى ، ويتضح هذا فى مثل قوله (وبدا الصباح عليها بمعانى الرياض ، وعلى الرياض

بمعانيها) أو (فاذا هو من الآخر بعيد على قرب قريب على بعد) أو (واللغة ألفاظ مفسرة بما تلبسه وهذه تفسر بما يلبسها) أو (فهو يبكى صابرا ويصبر باكيا) أو (وفيك المعانى التى تقول أين كلماتى ، وفى أنا الكلمات التى تقول أنت معانى) أو (وآه يا قمرى الحبيب بل يا حبيبى القمر) ، وهذا التقابل أو التضاد خصيصة أسلوبية تطرد فى أكثر كتاباته . ومن هذه الخصائص مانراه فى مثل قوله فى (حديث القمر) ... (وكما يستعبد الأعمى لعكازته ، لأنه يرى فيها عنصرا من النظر ، والشيخ الهرم لعصاه لأنه يرى فيها عنصرا من الشباب ، والطفل الصغير لعبته لأنه يرى فيها عنصرا من العقل — كذلك يستعبد عاشق الجمال الجمال ، لأنه يرى فيه لروحه وقلبه نظرا وشبابا وعقلا ..) .

فهو يرتب الجمل هذا الترتيب ، بحيث تؤدى الجملة الأولى الى معنى خاص ، والثانية الى معنى خاص أيضا ، وهكذا حتى يصل الى (النتيجة) التى تشبه القضية المنطقية ، فيجمع فى جملته الأخيرة كل المعانى الخاصة فى الجمل السابقة عليها ، وهى خصيصة مطردة أيضا فى أسلوبه ، فانك تراها فى (حديث القمر) أيضا فى قوله :

(كيلا تنزعج ملائكة السماء بهذه الأصوات الوحشية المنكرة ، التى تنبعث من فم النهار ، فتقبل على التسبيح لله ، وتقبل الطيور وهى ملائكة الطبيعة على المناغاة ، ويقبل العشاق وهم ملائكة الناس على الفكر والنجوى، ويقبل الشعراء من وراء أولئك جميعا فينظمون الشعر الالهى ، الذى تمتزج فيه ألحان الملائكة بأنغام الطيور وآهات العشاق ..) .

كما تراها فى قوله فى (أوراق الورد) :

(أنت ممزوجة بآلامى ، وآلامى منك هى أشواقى ، وأشواقى اليك هى أفكارى ، وأفكارى فيك هى معانيك فى نفسى ، ومعانيك

هى الحب ... ولكن ماهو الحب ، الا أن يكون آلامى وأشـواقى وأفكارى ، ومعانيك فى نفسى ..) .

وتراها أيضا فى قوله :

(فقد رأيت عندك الفجر ، وأخذت منه نهارا أحمله فى روحى ، لا يظلم أبدا ...

وخالطت عندك الربيع ،وانتزعت منه حديقة خالدة النضرة فى نفسى لا تذبل أبدا ..

وجالست عندك الشباب وترك فى قلبى من لحظاته مالا يهرم أبدا ...

واجتمعت عنـــدك بالحب ، وكشف لى عن مخلوقات الكون الشعرى الذى تملأه ذاتى ، فلا ينقص أبدا ..

ورأيتك يا فجرى وربيعى وشبابى وحبى ، فلن أنساك أبدا ..).
خصيصة أخرى من خصائص أسلوب الرافعى هى الاستطراد الذى يقوم على تداعى المعانى ، أو تفتيت الجزئيات .

يقول فى (أوراق الورد) :

(أية عاصفة احتملتنى من أيام الشمس وليالى القمر ، وألقت بى فى هجر منقطع كليالى القطب المضيئة بجبال قائمة من الثلج كأنها شموع تثير فى ذلك الهول المحيط بها ، اذ لا تظهر فيه النجوم على سمائها الا كحصى من الجليد ، ولا تمر الشمس هناك فى أفقها الا وهى ترتعد من البرد ..) .

فهو يشبه الهجر المنقطع بليالى القطب المضيئة بجبال قائمة من الثلج ، ثم يروح يشبه المشبه به ، وهو جبال الثلج ب (شموع تثير الخ) ، ثم يعلل هذا الهول المحيط بأن النجوم لا تظهـــر فيه الا كحصى من الجليد . وهو ــ كما نرى ــ يستطرد من صورة الى

صورة ، الى الحد الذى يؤدى تزاحمها الى شيء من الغموض ، وان ألقى ظلا من جوهر الشعر على الفقرة كلها .

وتراه فى (المساكين) يقول :

(المال .. المال وحده لا غير . فنحن نحتاج الى الغنى صاحب المال ، كما نحتاج الى بائع الملح ، وما أشبهنا فى اطرائه وفى الزلفى اليه ، بأطفال القرية ، اذ يتزلفون الى بائع الحلواء التى تلف بالعصا ، واذ هو واقف بينهم بعصاه وحلوائه كأنه الهبل الأعلى ... وهو من تعلم دسم الثوب ، ترب اليد ، قذر التفصيل ، والجملة يصلح أن يكتب على وجهه (متحف الميكروبات المصرى) ، ولو رآه طبيب لجعل عصا الحلواء على رأسه تفاريق ، ولكن أين لا أين الطبيب فى هذا الاجتماع .. كل أطباء الاجتماع ألسنة وأقلام ومحابر ، أما اليد التى تزيل المنكر أو تغيره فلا أراها تمتد الا من جانب الأفق ، ولا تعمل الا بعون من الله ..) .

فأنت هنا تراه يشبه تزلف الناس الى الغنى كتزلف الأطفال الى بائع الحلوى ، وحينما يذكر بائع الحلوى يأخذه تداعى المعانى ورغبة البسط فى القول والاستطراد فيه ، فيروح يفصل فى المشبه به ، ويخرج عن الغرض الأصلى الذى يراد به التشبيه ، فى الوقت الذى تم فيه هذا الغرض بانتهاء الجملة الأولى من الفقرة كلها .

وكذلك نراه يفعل فى مقاله عن الشيخ محمد عبده فى « السحاب الأحمر » ، فهو بعد حديثه عنه ، يتحدث مباشرة عن الحب والمرأة ، فتدهش للجمع بين الحديثين المتناقضين ، دون آصرة يمكن أن تجمع بينهما أو تكون — على الأقل — مبررا معقولا ! ولا شك أن هذا الاستطراد قد وصل به الى تداخل الصور وزحمتها ، وكثرة المعانى المتتالية ، فهو فى بعض الأحيان ، ينتقل — كما رأينا — من تشبيه الى تشبيه ، بحيث يجره التداعى الى الغموض فى كثير من الأحيان ، اذ أن انقطاع الصلة بين أول الحديث ووسطه أو آخره ، والانتقال

حسب تداعى المعانى لا يحدد موضوعا واحدا يدور حوله الكلام ، اذ أن هذه الطريقة فى الكتابة تجمع أشتاتا من الأفكار والصور دون رابطة أصيلة تربطها بعضا الى بعض ، ويبدو أن السبب فى هذا ، أن الرافعى كان يبحث عن التشبيه الجميـل ، فكل شىء يذكره لابد له من تشبيه ، والمشبه به له تشبيه أيضا ... يدلنا على أنه كان يبحث عن التشبيه الجميل ، قوله فى هامش صـفحة من (أوراق الورد) :

(فى كتابنا (حديث القمر) تشبيهات كثيرة ، وأوصاف مختلفة للقمر ، فانظرها هناك ، اذ هى نمط آخر غير ما تجـده فى هذه الرسالة) .

وتبدو هذه الظاهرة فى مثل قوله :

(أيها القمر .. الآن وقد أظلم الليل ، وبدأت النجوم تنضح وجه الطبيعة التى أعيت من طول ما انبعثت فى النهار برشاش من النور الندى ، يتحدر قطرات دقيقة منتشرة كأنها أنفاس تتثاءب بها الأمواج المستيقظة فى بحر النسيان الذى تجرى فيه السفن الكبيرة من قلوب عشاق مهجورين ، برحت بهم الآلام ، والزوارق الصغيرة من قلوب أطفال مساكين تنتزعها منهم الأحلام ، تلك التى تحمل الى الغيب تعبا وترحا ، وهـذه لعبا ومرحا ، والغيب كسجل أسماء الموتى ، تختلف فيه الألقاب وتتباين الأحساب والأنساب ، وتتنافر معانى الشيب من معانى الشباب ، وهو يعجب من الذين يسمونه بغير اسمه ، ولا يعلمون انه كتاب فى تاريخ عصر من عصـور التراب ..) .

ان تداعى المعانى ، والانتقال من تشبيه يذكر بتشبيه آخر ، قد طلسم هذه الفقرة كلهـا ، بحيث لا تستطيع أن تعرف ماذا يريد الرافعى أن يقول ، فكلامه لا يدور حول موضوع محدد ، أو فكرة بعينها ، وانما هو استطراد عن طريق التشبيه ، لا ربط فيه . وهى

ظاهرة شائعة فى أدبه وبخاصة فى أدبه الباكر ، ولعلها تتركز أكثر فى (حديث القمر) . وربما كان من بواعثها اعتقاده ان التشابيه الجميلة هى سند الأسلوب ومبعث جماله ، ومن هنا كان اكثاره منها .

ولقد أحس الرافعى نفسه غموض بعض كتاباته ، فأخذ يشرحها فى الهامش ، مثلما فعل فى شرح الجملة الأخيرة من الفقرة التالية (وأقبح من الفقر أن لا يظهر الفقر كاسيا ، أو تكون له زينة ، الا من أوجاع الانسانية ، أو المعـــانى التى يتمنى الحكماء لو انها غابت فى جماجم الموتى ..) ، فقد شرحها قائلا (أى الأفكار الساقطة مما هو مبعث الجريمة والرذيلة ..) .

وهو يكتب الى أبى رية رسالة يعترف فيها بهذا الغموض ، وذلك حين يتحدث عن كتابه (حديث القمر) :« وقد بدأت أمر على الكتاب ، وأصلح منه قليلا ، مما يستبين به بعض معانيه ، مع اضافة قليل من شرح المفردات ..» .

الا انه مع محاولته الاتيان بالتشبيه الجديد الجميل ، يعيد التشبيه الواحـد مرات ، وان اختلف مرة بعض الشىء ، فهو فى جوهره تشبيه قديم كثر دورانه فى كتاباته ، ترى ذلك فى اقوله : (الحبيب دولة قوية والمحب دولة ضعيفة ، ولهذا لا يكون معه أبدا كالمستعمرة) فانك تراه ثانيـــة فى قوله (أتعلمين أنك كالدولة من الدول العظمى ، حاشدة كل وسائل الحرب ، معدة لهـــا فى كل وقت ..) ، كما تراه فى قوله أيضا (فهو يرى اجتماع اثنين فى ذلك التيه ، وقيامهما معا كأنه تكوين دولة من الدول العظمى ..) .

وهو يحب أن يشبه بـ (المرآة) منذ كتابه (حديث القمـر) الصادر عام ١٩١٢ ، فهو يقول فيه (وما العين من الطبيعـــة ، الا كالمرآة التى تقابلك بالشىء كما هو لتفهمه أنت كما تريد ..) .

فأنت تراه يعيد نفس التشبيه بعد ذلك بسنوات فى قوله : (بل تحويه كما تحوى المرآة الصورة التى تقابلها ..) .

وفى قوله :

(وان كتابك ليأتينى ، وكأنه صفحة مرآة مسحورة بسر من أسرار الحياة ..) ..

وفى قوله :

(وأنت زينة السماء ، ولكن السماء منك كمرآة سحرية ..).

ويذكرها فى شعره .. فيقول :

أملى فيك كالخيـال على المر
آة كذب مصـور للعيـون

ويقول :

تحـير قلبى وهو ممتلىء بها
كما يملأ المرآة ناظرها ظـلا

وتتمثل ظاهرة « التكرار » فى التشبيه التالى الذى تراه يدور بعد ذلك كثيرا فى أسلوبه :

(وهو مطل عليهم ، كأنه عبارة مبهمة فى صحيفة وكأنهم من حوله شروح وتفاسير ..).

فأنت ترى نفس التشبيه فى قوله :

(ولكنى لم أعرف أنك أنت كما أنت ، الا بعد أن وضع الحب فيما بينك وبين قلبى وجه من أهواها ، كما يوضع التفسير الى جانب كلمة دقيقة ..) .

كما تراه للمرة الثالثة فى قوله :

(فهو كالسطر الذى يكتب على هامش الصفحة ، يستعرض ما ملأها بين أعلاها وأسفلها ، وله الشرح والتعليق وما فى معناهما ..) .

أن ظاهرة (التكرار) فى أدب الرافعى من أوضح الأشياء التى يلمسها الدارس المتأنى ، فهو يعيد التشبيه الواحد والمعنى الواحد مرات كثيرات فى كل ما يكتب ، بل هو يعيد الكتابة فى « الموضوع » الواحد عدة مرات ، وهى ظاهرة تشى بثقافة محدودة ، جعلت الرافعى يدور فى فلك ضيق لا يتعداه ، واذا كنا قد تحدثنا عن ظاهرة التكرار في (التشبيه) ودللنا من واقع كتاباته على وجودها، فها نحن ندلل عليها فى (الفكرة) ، فالرافعى يعيد كتابة أفكار سبق له التعبير عنها .

فهو يقول عام ١٩١٢ فى (حديث القمر) :

(ولا يعلمون أن التاريخ الانسانى ، وان لم يكن نسائيا ، غير أن المرأة هى التى تلده وترضعه بأخلاقها ٠٠ وان العظمة التاريخية ، وان كانت مترجلة الا أن فى باطنها دائما روح أنثى ٠٠) ، أليست هذه الفكرة هى نفسها التى يكررها فى « أوراق الورد » حينما يقـــول :

(ولست أشك أن الجمال فى هذا الوجود مظهر مؤنث ، حتى أن معرفة الأسد لتظهر كشعر امرأة ، ومن ذلك ما تبدو الأشياء الجميلة فى خيال العاشق المتدله كأنما فى كل شىء نظرة أنثى ٠٠) .

وستراها مرة ثالثة فى قوله :

(أترى يا قلبى كأن فى الوجود الذى حولنا أنوثة وذكورة ، فهو بالقمر تحت الليل يعبر عن نفسه تعبيرا نسائيا فى منتهى الرقة ٠٠) .

وهو فى (حديث القمر) يقول :

(ولا أرى غير شيئين لا يتخطى اليهما عقل الانسان ، ولا تنالهما لغته : ما وراء القلب ، وما وراء الطبيعة ٠٠) . فأنت تراه بعد ذلك بسنين ، يقول في « أوراق الورد » :

(كأن هناك فى العقائد الانسانية معضلتين : ما وراء الطبيعة ، وما وراء الحبيبة ..) .

واذا قال فى « أوراق الورد » :

(كلمات الحب كلمات يتغير عليها الحس ، فتفهم على أوجه مختلفة ، وتشاكلها معان كثيرة ، وكأن طريقة قولها تخلق طريقة فهمها ، فما هى من عام اللغة ، بل هى من خاصها ، اذ اللغة بين أهلها جميعا ، وهذه بين اثنين خاصة ..) .

تراه يكرر نفس (الفكرة) فى قوله :

(كنت أعرف أن اللغة موضوعة لكل أهلها ، شائعة فى ألسنتهم جميعا ، وقد خلقت من قبل أن يخلقوا ، وتركها الأول للآخر ، ولكن بلاغتك التى يتهلل بعضها تهلل جبينك .. الخ . قد جعلتنى أعرف أن الكلمة التى يلقيها حبيب الى محبه ، تأتى وكأنها مخلوقة لساعتها ، اذ ينتزع منها المحب صورا لا يراها في مثلها من كلام الناس ، ويصيب لها فى نفسه معانى لا تكون لها فى ذات نفسها ، ويراها مبتدعة له ابتداعا غريبا على نسق حى ..) ..

واذا قال :

(انك تتكلمين ولا تعرفين أن وجهك ينقح فى معانى كلامك..).

تراه يعيد نفس الفكرة فى قوله :

(أيكون الحب تنقيحا فى معانى الكون بالنفس وخيالاتها ، أم فى معانى النفس بالكون وحقائقه ..) . ثم ألا تراها مرة ثالثة في قوله :

(ما أعجب أن يكون القتل تنقيحا فى قانون الحياة ..) .

وهو فى بعض الأحيان ، يعبر عن معنى من المعانى نثرا ، ثم يروح فيعبر عنه مرة أخرى شعرا .. فاذا قال :

(ومع ذلك فروح الشجر المر هو الماء العذب) ، تراه يعيد نفس المعنى شعرا :

لو يبين الحلو خالقه ... كيف يسقى المر من مطره

أما تكرار (الموضوع) كله ، فشواهده كثيرة ، منها أنه كتب قصيدة فى الجزء الأول من ديوانه الصادر عام ١٩٠٣ ، وقال فى مقدمة نثرية له ، انه كتبها عن شيخ هرم خطب فتاة ناعمة الصبا ، فأغلظت له فى الرد :

جاءها خاطبا وبين يديه ... قام عزريل واعظا وخطيبا
وتصدى لها فصدت وقالت ... قبح الشيخ أن يكون حبيبا
قال هذا المشيب نور فقالت ... أوقدوا في السراج هذا المشيبا
قال انى أبو العجائب قالت ... وعجيب ألا تكون عجيبا
يا أبا الهول يا أخا الهرم الأكـ ... ـبر .. حسبى فقد كفاك عيوبا
يا نذير الممات يا وجعة القلب ... متى كنت للقلوب طبيبا
أنت كالبدر غير أنك ممحوق ... وكالشمس أوشكت أن تغيبا

ويمسك الرافعى بنفس الموضوع ، فيعيده نثرا فى شبه قصة فى كتابه (حديث القمر) ، وذلك حين راح يتحدث عن الزوج الشيخ والزوجة الشابة الحسناء . ومن هذا الحديث قوله :

(ويأتى هذا الرجل — ولا يكون الا غنيا — وقد أدل بنفسه ، وأشرق وجهه ، كأن فيه كل معانى ذهبه وفضته ، وان كان هذا الوجه الجلدى كأنه بعض ما خلق من أحذية الرذيلة ، فيريد أن يتسفه الجمال عن ماله وثروته ، ويريد أن يشترى الحسناء الجميلة التى خلقت للحب لا للبيع ..

أيوثق فؤاد الحسناء بالسلسلة الربوض ، التى صيغت من كلمات الزواج ، ثم يشد طرفها فى يد الرجل الذى تكرهه

أو ستكرهه ، لأنه شخص البغض ، ويقال فى ذلك انهما ارتبطا برباط مقدس .. ألا تسمع أيها البغيض صلصلة هذه السلسلة فى دموعها أو فى تنهدها أو في أنينها ..) ، ويرجع الرافعى مرة ثالثة الى نفس هذا الموضوع فى كتابه (المساكين) ، فيتحدث على لسان الشيخ على ، عن الكونت العجوز وزوجه الشابة الحسناء « اويز » حديثا مفصلا يملأ عشرات الصفحات من الكتابات ، وهو يدور حول نفس المعانى التى ذكرها فى شعره ونثره من قبل ، وان جنح الى أسلوب السرد القصصى . ومن العسير اختيار جزء منها ، ولكن ربما حقق غرضنا من التدليل على هذه الظاهرة قوله (أيها الهرم الأحمق الذى يستبد بالجميلة الفاتنة ، انك تعبث بذنب السفينة ، فاذا انحرفت هنا وهنا زعمت أنها تضل الطريق لسوء تركيبها ، الا فاعلم ويحك أنك لا تصلح أن تكون ربان هذه السفينة. عسيت تقول انك غنى ملء الأمل الواسع ، وأن هذه الحسناء ستفضى من طريق مالك الى طريق حبك ، لأن المال ــ زعمت ــ أوسع طرق الحياة وأطولها ، وفيه منفذ الى كل طريق ، شئت أو شاء الهوى .. أنت أيها الأحمق استنفدت هذه الحسناء من الفقر ، ثم جعلت تباعد ما بينك وبينها .. ويا عجبا من غرام الشيوخ بالفتيات ..) .

وفى (المساكين) نرى الصورة الآتية للطفلة الضالة ، وهى صورة تعترض سياق قصة الكونت وزوجته الشابة « لويز » وتبترها بترا حادا فتخل بالسياق مثل كثير من استطراداته .. يقــــول :

(ولكن هناك طفلة .. طفلة صغيرة قريبة العهــد بالغيب ، قد ضلت بيت والديها فى المدينة المترامية ، فمشيت ذليلة ضائعة، يتحير الدمع فى عينيها كما تتحير الألفاظ بين شفتيها ، وقد ساورها الخوف ، وتوثبت نفسها فزعا لهول ما هى فيه ، وجعلت عيناها

تتوسلان الى الناس بالبكاء ، ولسانها يتلجلج بألفاظ مرتعدة ، كأنما ينتفض عليهن قلبها الصغير ، وهي في ذلك لا تبرح تتمثل أبويها فتضطرب اضطراب الفرخ ، اذا سقط من وكره ، وترى أن المصيبة قد انحصرت فيها وحدها من دون الناس ، فتبكي بكاء تكاد تنشق له) ..

ان نفس هذا الموضوع هو ما تناوله الرافعى فى كتابه (السحاب الأحمر) بعنوان (الصغيران) . فهو يحكى — فى أسلوب سردى — قصة طفلين ضالين عن بيت أبويهما ، ويروح يتفنن فى وصــــفهما وصفا فنيا عاليا ، يدل على نضج وخبرة ، لم يتوافرا بهذه الدرجة حينما تعرض لنفس الموضوع فى كتابه (المساكين) .

يقول فى وصف الصغيرين :

(صغيران ضلا عن أهلهما فى هذا الليل ، يمشيان على حيــــد الطريق في ذلة وانكسار ، وتحسب أقدامهما من البطء والتخاذل لا تمشى بل تتزحزح قليــــلا ، فكأنهما واقفان ، تتبين الخوف فى عيونهما الصغيرة ، وتراه يفيض على ما حولهما حتى ليحسب كلاهما أن المنازل عن يمينه وشماله أطفال مذعورة . ويتلفتان كما تتلفت الشاة الضـــالة من قطيعها ، لا يتحرك فى دمهـا بالغريزة الا خوف الذئب . ويتسحبان معا وراء الأشعة المنبثة فى الطرق ، كأن أضواء المصابيح هى طرق قلبيهما الصغيرين . منقطعان فى ظلام الليل ، وليس على الأرض ، أهنأ من ليل الطفل النائم ، فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل الضائع ؟ .. طفلان فى وزن مثقالين من الانسانية ، ولكنهما يحملان وزن قناطير من الرعب ..) . وكذلك يفعل حينما يتحدث عن فداحة السقوط الأخلاقى بالنسبة للرجل وللمرأة فى كتابه (المساكين) ، فهو يؤكد أن سقوط المرأة أشــد وأبشع .. يقول (وما اعترك رجل وامرأة في خلق العفة ، الا كانت هى الساقطة وحدها فى الاعتبار ، لأن العفة انما عرفت بالمرأة من

أصل الخلقة ، وانما يتصاون الرجل تشبها وتقليدا ، فان هو زل مرة ، وقارف الاثم ، فقد أخطأ فى التقليد ، ولم يفقد شيئا من طبيعته ، ولكن المرأة متى فعلت ، فقدت من نفسها وغيرت من تكوينها ، وأخطأت فى الأصل الذى بنيت عليه طبيعتها ، وقامت به شرائع الله ، ومر فيه نظام الأمم ، فلا جرم ، كان عقابها على الخطأ عقابا نفسيا ، يجمع من شدة الطبيعة ، الى عنت الشرائع ، الى قسوة الاجتماع ، ولهذا كان شر عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة بها ..) .

ويرجع الرافعى الى فكرته هذه فيديرها حوارا رائعا بينه وبين المتزوجة بعقد مدنى ، وذلك فى كتابه (السحاب الأحمر) ، يقول :

(قالت : فأنا فى الاجتماع تعاسة ، وبهيمة ، ورذيلة ، وفقر ، وضلالة ، وسخرية ، ولكن ألست ترى هذه الصفات بعينها فى كل الناس على بعض التفاوت في مقاديرها ، والتنوع فى أشكالها ؟ وهل الرجل الفاجر الا كالمرأة الفاجرة ؟

قلت : لقد فجر من الرجال من لا تحصيهم الملايين ، فهل علمت أن فاجرا منهم ، حمل تسعة أشهر ووضع . ألا ترين أن الطبيعة جعلت لكل حكما ، وهيأت لكل موضعا ؟

قالت : فكأن الرجال عندك أظهر فجورا من المرأة ؟

قلت : بل هو هى فى اللعنة والسقوط ، والنعل أخت النعل .

ولذا كان من الطبيعى أن تحاط المرأة فى الاعتبار بالمعانى الاجتماعية الكبرى ، اذ كانت هى الغرض الذى تمثلته القسى الرامية (١) ، فهى فى معنى الكمال الأصل ، لأنها الأمومة ، وهى فى

---

(١) أى ترميه وتستهدفه .

العفة الأصل ، لأنها الزوجية ، وهى فى الحياء الأصل ، لأنهـــا العرض ... ومن ثم كان سقوطها سقوطا لهذه المعانى كلها ..) .

فالرافعى اذن يكرر ويعيد كثـــيرا من التشبيهات والمعانى والموضوعات عبر كتاباته كلها ، وليس من شك فى أن فى ذلك علامة فقر ثقافى ، فقـــد اقتصر الرافعى على قـــراءة التراث ، وقراءته لا تمســـك أود كاتب يظهـــر فى القرن العشرين ، ولذلك كان الرافعى أديبا مرحليـــا ، ولكن يجب أن نقول فى نفس الوقت ، أن الزمن الذى عاش فيه الرافعى ، كان للأدب الكلاسيكى فيه صولة ، وكانت فيه بقية رغبة فى تقليد النماذج التراثية الشامخة ، وكان جمهور القراء أميل الى روح الأدب القديم ، وكان المجددون لا يزالون فى كفاحهم دون جمهور عريض يشد أزرهم .

واذا كان هذا هو حكمنا الموضوعى على الرافعى ، فان من حقه أن نعلن أنه في الحدود التى تحرك بينها ، وفى اللون الذى عرف به ، يعد كاتبا كبيرا . وقد أدى دوره ككاتب مصلح وأديب فى وقت كانت فيه مصر فى حاجة الى قلم مثل قلمه ، وقد سبق أن تحدثنا عن الدور الذى قام به كصمام أمان تجاه الانكباب على تقليد الغرب ، فضلا عن دفاعه عن اللغة العربية والاسلام والعروبة ، ودعوته الى المثل العليا والخلق الكريم ، وكل ذلك فى أسلوب عربى يرتفع الى أساليب الفحول من كتاب العربية فى أزهى عصورها . ولن ننسى هنا أن نناقش الدكتورة نعمات فؤاد فيما ذهبت اليه ، حينما تعرضت لأسلوب الرافعى وموســـيقاه ، وذلك فى قولها :

(ان الرجل ممن يتفاصحون بالألفاظ ، واذا جانبه التوفيق فى اختيار اللائق منها في موضعه ، فان وراء هذا سرا فما هو ؟ انى أحسبه يكمن فى الصمم الذى أصيب به الرجل ، فهو بمنأى عن موسيقى الألفاظ ، غير قادر على تذوق جرس كل منها ورنينه على حدة ..) . أصحيح هذا الكلام ؟

ان ميزة الرافعي الكبرى أنه أديب صاحب أسلوب تتحقق فيه خصائص الأسلوب الأدبى العالى ، ومن خصائص الأسلوب الأدبى الايقاع ، وأدب الرافعي كله يدل على سلامة جرسه اللفظى ، ولن نذكر هنا نموذجا لأسلوبه ، فقد اقتطفنا منه عبر الصفحات الماضية الشيء الكثير ، ويكفى أن نحيل القارىء الكريم الى (الربيطة) التى سننهى بها هذا الفصل ، ولكننا نقول دفعا لهذه التهمة التى تسندها الدكتورة الى صمم الرافعي ، انه لم يولد فاقد السمع ، وانه بعد اصابته بحمى ، أخذ سمعه يضعف تدريجيا ، حتى اضمحل تماما فى سن الثلاثين كما يذكر سعيد العريان . وهو حتى هذه السن ، يقرأ ويكتب ، فاذا كان للأذن ودقة سمعها دخل فى الاحساس بجرس الألفاظ ، فقد كان للرافعي الوقت الكافى لتربية ذوقه السمعى ان صح التعبير . والمعروف أن للأديب سمعا باطنا هو الذى ينتقى الألفاظ ويختارها لا شعوريا . ويبقى سؤال أخير، هو : هل من الممكن أن نطمئن الى تفسير الدكتورة نعمات الذى ناقشناه لمجرد وقوعها على ألفاظ رأت أنها لم تنزل أماكنها فى أسلوب الرافعي ؟ ألا ترى الدكتورة أن ذلك يقع كثيرا عند شعراء وأدباء كبار ؟ ان الدكتورة نعمات ترتب على صمم الرافعي قضية أخرى تعوزها الأدلة أيضا ، فهى تقول (ويلاحظ الدارس لأدب الرافعي أن تشبيهاته سمعية أكثر منها بصرية ، وهذا دليل على احساسه بعاهته ككل ذى عاهة أو نقص فى ناحية من النواحى ، ولم يكن الرافعي كالمازنى يصرح بناحية النقص فيه ، منفسا عن نفسه في دعابة وسخرية ، ليخفف من وطأتها عليه ، بل حاول الرافعي اخفاء صممه ، ولم يشر اليه ، فجاءت عباراته انعكاسا لاحساسه به ، وان لم يدر ، فان جنوحه الى التشبيه بالسمعيات ، ان هو الا صدى لانشغاله الدائم بسمعه المصاب ..) .

ان الدكتورة تعرض قضية مهمة بلا شك ، ولكنها وقد اقتطفت شذرات من رسائل الرافعي الى أبى رية ملأت بها ١٣ صفحة من

كتابها لتدلل على غرور الرافعى لم تذكر ما يثبت هذه القضـــية الخطيرة ، من أن الرافعى لصممه يجنح الى التشبيه بالسمعيات ، فقد اكتفت بعد عرض القضية باحالة القارىء الى الهامش الذى كتبت فيه تقول (يرى القارىء أمثلة من تشبيهاته السمعية فى ص ۹۰ ، ۹۱ ، ۲۸٦ من كتابه « أوراق الورد » ۰۰۰) ۰ ولكن ألا ترى الدكتورة معى أن ذكر الشواهد هنا من واقع كتابات الرافعى أمر هام جدا ليسند هذا الفرض الذى افترضته ؟ وأن الواجب هنا — اذا كانت قد رأت هذه التشبيهات السمعية ظاهرة مطردة فى أدب الرافعى — أن تذكر منها أمثلة كافية للتدليل على ما ذهبت اليه من رأى ، وألا تكتفى بالاشارة الى تشابيه — كما تقول — فى ثلاث صفحات فى كتاب واحد من كتبه ؟

ولقد أجاب سعيد العريان على الدكتورة دون قصد ، وبخاصة نكرانها الايقاع فى أسلوب الرافعى ، فلنر ما يقوله العريان فى هذه المسألة ، وهو رجل عاشر الرافعى واختلط به ، فكلامه عنه كلام المتثبت الخبير :

(وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من انشائه برهة طويلة ، يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعا من نفسه ، فيردها وما بها من غيب ، ليبدل بها جملة تكون أكثر رنينا وموسيقى ۰ وكان له ذوقه الخاص فى اختيار كلماته ، يحسه القارىء فى جملة مايقرأ من منشآته ، وكنت أجد الاحساس به فى نفسى عند كل كلمة وهو يملى على ۰ هذا الذوق الفنى الذى اختص به ، هو الذى هيأه الى أن يفهم القرآن ويعرف سر اعجازه فى كل آية ، وكل كلمة من آية ، وكل حرف من كلمة ۰۰ وحسب القارىء ان يعود الى تفســير الرافعى لقوله تعالى (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ۰۰) ليرى نموذجا من هذا الذوق الفنى العجيب ، فى فهم اللفظ ودلالة

المعنى ، يقابله وجه آخر من هــذا الذوق فى اختيار ألفاظه عند الانشاء ...) .

أثر مهنته فى أدبه :

اذا كانت مهنة الأديب كما تحدث بعض العلماء والنقاد ذات أثر فى أدبه ، فان الرافعي يؤكد هذه القضية ، فالمعروف أن الرافعى قضى حياته كلها كاتبا بالمحاكم ، ومن هنا كانت هذه الصور والمعانى التى تدور فى فلك المحاكم وجوها ... يقول :

(أما والله ياحبيبتى لو كنت محامية ، لسرقت من أدمغة القضاة أحكامهم .. قالت : منزلة رفيعة . ولكنها على سرقة وتلصص . قال يا عزيزتى : يلذ لى انهــــا سرقة ، لأتخيل لها قانونا ومحكمة وقضاة . قالت : ثم ماذا بعد قانونها ومحكمتها وقضاتها ؟ قال : أرافقك الى تلك المحكمة واتهمك بتهمة سرقة القلب ..)

ويقول :

(ويخيل الى أن محبا لو قبل حبيبته بتلك اللهفـــة أى بتلك الوحشية ، لجاز لها أن تتهمه قانونا بتهمة الشروع فى أكلها ..)

ويقول :

(ونظرة طويلة صـــارمة لها سيماء قاض محقق تبحث فى عن توكيد لتهمة أو براءة ...) .

ويمتد هذا الأثر الى شعره :

نزع القـلب بى فسرت رويدا ... فاذا مــن أحبـــه فى طريقى

يتجنى كأنه (قاضى الجنـــايا ... ت) نصـــير لقده المشـــوق

أما البيت الآتى :

واذا ماعذبت ذى العين بالمـا ء فكيف استحق ذا القلب نارا

فهو يقول عنه فى الهامش (لست متضلعا من القانون فأشرح هذه المسألة ، وأبين وجه الظلم فيها ، فان الطرف والقلب شريكان فى جناية الهوى ، ولا ندرى لماذا عذبت العين بالماء والقلب بالنار ..)

وهو يرجع ليقول فى هامش ديوانه أيضا (.. وانى اعلى غير رأيه ، ان كان لا يزال عليه ، فان حمل اللطف احدى الحسان على اقامة الدعوى فلتبعدنى من « ذيلها » ..) .

فاذا كانت مهنته قد تركت بصماتها فى أدبه ، فان مرضه الذى كان يشكو منه دائما الى صديقه أبى رية قد ألهمه مقالا عنوانه (فلسفة المرض) .. يقول فى بعض أجزائه :

(خلقت نفس هذا الانسان وكأنها ثلاثة أنفس ، اذ كان دأبا لها أن تكون طامعة متلفتة وثابة ، فهى لا تسكن على رزق ترزقه ولا تثبت على حال تحول اليها ، ولا تقر فى منزلة تسفل أو تعلو . وهى كذلك لا تبرح تنزع مما وجدته الى مالم تجده ، لأن الشوق أحد عناصرها ، ولا تنفك متقلبة تجعل ما ترضاه يوما هو ما تسأمه يوما ، لأن الرغبة احدى طبائعها ، ولا تزال تتخطى حدود الأشياء ، لأنها من الأزل بنيت على الخلود الذى لا يقف على حد . فالشوق الثائر فى حاجة الى فترة تكسر من حدته ، والرغبة المجنونة فى حاجة الى ضفة تهدىء من ثورتها .. وبذلك يكون الانسان دائما فى حاجة الى بعض الأمراض ، لا ليمرض ولكن ليصح ، الا أنواعا من أساليب الموت ، تسمى أمراضا لاحيلة فيها .. فالمرض الرحيم ، وضع النفس فى وثاق يمسكها حينا ليحبسها على تأمل حقائق الحياة المغطاة ، ويكرهها على أن ترى الدنيا أهون من أن تصغر لها نفس ، وأخس من أن يسقط بها قلب ، وأحقر من أن تتهالك عليها الأحياء .. وكأنما

تطوف الأمراض فى هـذا العالم لتصلح نواحى الانسـانية فيه ، فتضعف الحيوانية ، وتكسر شرة الهوى ، وتكف طغيان المال عن النفس ، حتى لا شهوة فيه ، ولاقوة له ، ولو جمعوا ما أصلحته الأديان والقوانين من أحوال النفوس وطباعها ثم ما أصلحته الأمراض منها ، لرأيت أن الله أنبياء من هـذه الأمراض ، يرسلها الى الدم الانسانى . .) .

٢ ـ الرافعى قصاصا :

ان أردنا أن نحدد القالب الفنى الذى صاغ فيه الرافعى أدبه ، لم نجد الا قالب (المقال) وقالب (الرسالة) ، وهما القالبان اللذان استحوذا على الكتاب أصحاب الأساليب فى الجيل الماضى من الأدباء ، كالمنفلوطى وصادق عنبر .

لقد حاول المنفلوطى والرافعى كتابة القصة ففشلا ، ذلك انهما لم يعرفا فنية كتابتها ولا منطقها الخاص ، والحق يقال ان القصة حتى على يد الرعيل الأول من القصاصين الذين تفرغوا لكتابتها كانت ناشئة كثيرة العيوب ، ولقد كان الرافعى يفهم « القصة » بمعنى « الحكاية » ، فهو يحكى ويسرد ويستطرد الى موضوعات لا تمت بصلة الى موضوع حكايته ، ويرجع ثانية الى هذا الموضوع ، دون أن يمنطق حكايته منطقة فنية ، ودون رعاية لشروط معينة معروفة لا بد منها لتكون القصة قصة بالمعنى المتعارف عليه بين الأدباء والنقـــاد .

ويحكى العريان أن الرافعى كان لا يؤمن بفائدة القصـــة ، ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث ، وكان يقول له (يا بنى ، ان لك بيانا وفكرا ومعرفة ، فلماذا لا تحاول أن تكون أديبا ؟ انه لا يليق بك أن تكون القصص هى كل ما تحاول من ضروب الانشاء ، وان فيك استعدادا لأكثر من ذلك ..) .

وليس من شك فى أن القصة فى حاجة الى قدر من التجارب الحياتية لم يتهيأ للرافعى أن يعرفه بسبب هذه الآفة التى باعدت بينه وبين الناس ، وقد سبق أن ذكرنا جلوسه الى أحد الشبان

يستمع الى مغامراته الغرامية وتجاريبه فى عالم النساء ، يتزود من خبرته ويعلم ما يجهله ، ويؤكد ذلك أنه حينما حـاول الكتابة القصصية كان أبطاله من عالم (القراءة) لا عالم (الواقع) ، فهو يرجع الى بعض الشخصيات التاريخية التى حكت كتب الأدب أو التاريخ بعض أخبارها ، ويخلق من هذه الأخبار وما هو بسبيلها حكاية تستهدف غرضا ، فهو فى (قصة زواج) ، يتحدث عن سعيد ابن المسيب ، وفى (سمو الحب) عن عطاء بن أبى رباح ، وفى (بنته الصغيرة) عن مالك بن دينار والحسن البصرى ، فاذا أدار حول هذه الشخصيات وأمثالها قصصا جعل لها هدفا أخلاقيا كعادة الرعيل الأول من كتاب القصة عندنا .

ويؤكد هذا الرجوع الى عالم (القراءة) ، أنه حتى فى بعض معاركه القلمية ، والمعارك بطبيعتها تستلزم المواجهة والتلقائيـة والمعاصرة ، كان يرجع الى نمط من الحوار والقصص الخفيف ، احتذاء ب (كليلة ودمنة) ، بل هو اذا أراد أن يهاجم تركيا وحكامها وجريهم وراء حضارة الغرب جريا أعمى ، تحدث عن الحاكم بأمر الله ، ويرجع الى أسلوب (كليلة ودمنة) فى مقاله (كفر الذبابة) حينما يهاجم هؤلاء الحكام . وهو حينما يتحدث عن الانتحار بعد أن حاوله صديق له أديب يجرى الحديث على لسان (أبى محمد البصرى) وهو يعنى به ذلك الصديق .

ان الفصل الثالث من كتابه (المساكين) وعنوانه (مسكينة ومسكين) ، محاولة لكتابة قصة قصيرة ، ولكنها محاولة بعيدة عن طريق القصة الفنية السليم ، فالمؤلف يتدخل عبر السياق بالقاء المواعظ والحكم ، ويسرف فى الشرح ويطيل الوصف ، وبطلة هذا الفصل فتاة فقيرة ، تمشى على وجهها ، خاوية البطن ، متعبـة القدمين ، وبعد صفحات من الوصف المل (بالنسبة لقارىء اليوم الذى تعود قراءة القصة القصيرة محبوكة مركزة ذات أبعاد فنية) ،

تلتقى الفتاة بسيدة ثرية ، ويرجع المؤلف الى الاسهاب فى تصوير هذه السيدة ، ويدور بعد ذلك حوار بعيد من الصدق والواقع ، فلسبب مجهول ، تهاجم السيدة الثرية المدلة بثرائها هذه الفتاة الفقيرة المسكينة ، وهو هجوم لم يبرره الرافعى فى سياق حكايته ، حتى يقنعنا فنيا وعاطفيا بمعقولية هذا الموقف العجيب ، فأنت منذ الوهلة الأولى ، تحس بغرابة هذا الموقف الذى يبـــدأ هكذا (ودلفت اليها باسطة اليد ، وهى تكاد تزلقها ببصرها ، حتى اذا وقفت بازائها خفضت رأسها وقالت :

– سيدتى .. أدام الله نعمته عليك وهنأك هذه النعمة بدوامها .

– هى دائمة وما أنت والنعمة ؟

– سيدتى .. وقاك الله ما أنا فيه من بأساء الحياة ولا كتب عليك أن تعرفى ما هى ؟

– فلماذا أنت وأمثالك فى الحياة اذن أيتها الحمقاء ، وهل يكتب تاريخ البؤس الا فى صفحة من مثل هذا الوجه .

– سيدتى .. مهلا .. مهلا ... وانظرى الى يتنظر الله اليك .

– قد نظر الله اليك من قبلى .

– سيدتى .. هبينى خادما أحسنت اليها .

– فلتكونى خادما طردتها ، ان بلغت أن تكونى خادما لمثلنا .

ويطرد الحوار فى هذا الشكل الخرافى البعيد عن الواقع ، فلا تفهم كيف تسكت الفتاة على هذه الاهانات المتكررة ، وأضعف الايمان أن تبتعد عن هذه السيدة السادية النزعة ، كما لا تفهم كيف تهاجم مثل هذه السيدة فتاة مسكينة بهذا الشكل العدوانى دون سبب ما .

وترجع السيدة الثرية الى منزلها ، فتجد ابنتها الوحيـــدة محمومة ، ويحضر الطبيب والأم تقول مذهولة (مسكينة ..

مسكينة ..) . وتدور الأيام ، وتقابل الفتاة الفقيرة السيدة الغنية (وقد حال لونها ، واستحال كونها ، وعادت من الهم ، كأنها ظل منتصب فى سواد ، وظهرت من الحزن كأنها تمثال منصوب الحداد ..)

فبكت الفتاة لحال الثرية التى تبدل حالها وقالت :

ـ ياربا‌ه .. مسكينة .. مسكينة .

وتنتهى القصة بالآية الكريمة (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ..) .

ويحاول الرافعى كتابة القصة مرة أخرى فى (الرجل البخيل) وهو الكونت (فيكتور) ، وهو (رجل أملق أموال الناس وزادها فى ماله ، وجمع بين سوء حمل الغنى وسوء حمل الجاه ، وعرف النعمة ، ونسى المنعم .. وقد أسند هذا الرجل فى حدود السبعين ، وكادت تحطمه السن ولا يزال متأبدا (١) ، لم يستر سقف بيته امرأة ، ولا ضحكت الشمس فيه على وجنة طفل يبتسم . وقد نشأ على أن حب المال لا يستقيم الا ببغض النساء ، لأنه أكثر ما يجمع لهن ، وأكثر ما ينفق عليهن) . الا أن الكونت يقع ـ على رغم شحه ـ فى حب (لويز) ، وهى فتاة غرر بها شاب ، وهى كما يصفها الرافعى :

(من هذه الهيفاء التى تستميل ولا تميل ، وقد استبدت بالجمال ، فلا يرى فى غيرها شىء جميل ، طالعة كالشمس فكل نجمة من ضوئها كاسفة ، لاهية كالنسيم ، وفى كل قلب من حبها عاصفة ، وقد عبدها العشاق باطلا كما يعبد المجوس الشمس ، وتمنوا فى دلالها المحال ، كما يتمنى المرء من أمس ..) .

ويعرف الكونت انه لا سبيل الى الجمع بينه وبينها الا أمواله ،

---

(١) يقال تأبد اذا طالت عزبته وقل أربه فى النساء .

فهو شيخ فى السبعين ، وهى فتاة فى ميعة الصبا وغضارة الشباب ، وبعد ممانعة وتدلل من الفتاة ترضى الكونت زوجا .

ويفرد الرافعى صفحات بعد ذلك عن هذا الزواج غير المتكافىء ، وكأنه بقصته هذه يستهدف توعية الناس ، وتعريفهم مضار مثل هذا الزواج وأخطاره .

ولما كان (المساكين) ميدانا لحكمة الشيخ على ، فانه لم ينس قصة الكونت ولويز ، وهو الذى ابتدأ روايتها ، فان الشيخ على قد سمح لنفسه أن يخل بالسياق ، فيتدخل تدخلا مفاجئا غير مريح ليوزع حكمه ومواعظه تعليقا على موقف أو رأى ، ويعود السرد بعد ذلك ، بعد أن يحس القارىء بغرابة المنـاخ النفسى والاجتماعى الذى يجمع بين (الشيخ على) وبين (الكونت فيكتور) وزوجته (لويز) .

ويموت الكونت ، وتباع مكتبته التى يشتريها أديب سمع بقصة الكونت ولويز ، وكالعادة حين تختتم القصة بموعظة أو آية قرآنية ، اختتم الرافعى قصته بأن هذا الأديب وجد فى كتاب ورقتين ، واحدة كتبها الكونت وقال فيها خلاصة تجربته الحياتية :

(الفقر خلو من المال ، ولكن أقبح الفقر خلو من العافية ..) ، وأخرى كتبتها (لويز) ، تجمع فيها خبرتها فى الحياة بعد زواجهـا (والغنى أن تملك من الدنيا ، ولكن أحسن الغنى أن تهنـأ فى الدنيا ..) .

ولقد اشترك الرافعى فى مسابقة القصة التى أقامتها مجلة « المقتطف » بقصة عنوانها (عاصفة القدر) ، فرفضتها اللجنـة الفاحصة ، التى عللت الرفض بأنها تفتقر الى لمسة الفن ، ولأن المؤلف ظاهر الشخصية فيها بمواعظه وخطبه ، وان أرجع الرافعى اخفاق القصة الى أن (مى) هى السبب ، لأنها كانت فى اللجنـة والقطيعة بينهما .

٣ ـ الرافعي شاعرا :

بدأ الرافعي حياته الأدبية شاعرا ، وما كان يظن أن الأمر سينتهي به الى هجر الشعر الى النثر ، وكان في أول أمره يتطلع الى منزلة بين شعراء عصره محترمة ، ان لم تكن المنزلة الأولى في الاحترام ، فأكب على دواوين الشعراء القدامى ، قارئا مستوعبا ، وكان أمامه البارودي وحافظ . أما البارودي ، فقد كان امام الشعراء ، وأما حافظ ، فكان شاعرا شابا صاحب صيت ، الا أن المنافسة بين الرافعي وحافظ ، لم تكن منافسة متكافئة ، فقد كان حافظ صاحب شهرة وصاحب مكانة عند الامام محمد عبده ، وعلى صلة وطيدة بالبارودي ، فكان أن أكمل الرافعي ما ينقصه فدعم صلته بالبارودي وبالأستاذ الامام ، وكان ينشر شعره في مجلات الضياء والبيان والثريا والزهراء والمقتطف وسركيس والهلال وغيرها . ويحكي سعيد العريان على لسان جورج ابراهيم حديثه عن الرافعي في أول عهده بالشعر .. يقول (بدأت صلتي بالمرحوم الرافعي قريبا من سنة ١٩٠٠ ، كنت يومئذ أقول الشعر وكان اسمي معروفا لقراء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الرافعي أو أسمع به ، وكان لأخيه الوجيه سعيد الرافعي ، متجر في شارع الخان بطنطا ، يستورد اليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت يوما أشتري شيئا من فاكهة الشام ، اذ كان له بها شهرة ، فلما صرت اليه ، لقيت هناك فتى نحيلا في العشرين من عمره ، يلبس جلبابا ، جالسا الى مكتب في المتجر قريب من الباب ، فما رآني الفتى ، حتى ناداني ، فدعاني الى الجلوس ، ثم قال لي : أتعرف أني شاعرا ؟ قلت : لا .. لست أعرف ، قال أنا

مصطفى صادق الرافعى ، وهذه الكراسات كلها من شعرى . وعرض على بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلا : ولكنه شعر الحداثة ، فهو لا يعجبنى ، سأختار أجـــوده وأمزق الباقى ، وسأطبع ديوانى بعد قليل فتعرفنى ..) .

وظل الرافعى يقول الشعر ، وينشره فى الجـــرائد والمجلات أو يطلع عليه بعض أصدقائه من شباب السوريين المقيمين فى طنطا ، ومنهم الشاعر جورج ابراهيم والصيدليان نسيم يارد ، والياس عجان ، والطبيب تودرى ، وكانوا اذا فرغوا من أعمالهم جلسوا فى صيدلية (كوكب الشرق) بطنطا . حتى اذا كان عام ١٩٠٣ ، أصدر حافظ ديوانه ، وكتب له مقدمة أثارت الاعجاب والجدل ، فسار الرافعى على نفس الدرب ، فأصدر ديوانه بعد ديوان حافظ بقليل وكتب مقدمة له ، بلغ من جودتها أن الشيخ ابراهيم اليازجى شك فى أن يكون كاتبها من ذلك العصر . وفى عام ١٩٠٥ كتب الرافعى مقالا غفلا من التوقيع ، حدد فيه طبقات الشعراء ، وجعل نفسه فى الطبقة الأولى ، مع الكاظمى والبارودى وحافظ !

ان مقدمة ديوان الرافعى لا تخرج عن المفاهيم السائدة للشعر ، وقيمة هذه المقدمة أنه حاول أن يعرف الشعر عنده ، فهو (لسان القلب اذا خاطب القلب ، وسفير النفس اذا ناجت النفس ..) . وهو يقارن بين الشاعر والمطرب ثم يقول ان الشعر موجود فى كل نفس ، فانك (لتسمع الفتاة فى خدرها ، والمرأة فى كسر بيتها ، والرجل وقد جلس فى قومه ، والصبى بين اخوته ، يقصون عليك أضغاث أحلام ، فتجد فى أثناء كلامهم من عبق الشعر ما لو نسمته لفغمك ..) ، ويعدد بعد ذلك أسماء شواعر العربية ، ثم يقتبس قولا يذهب الى أن الحكمة لا توجد الا فى بيت شعر ، ويتحدث عن الشعر العربى فى ايجاز ، كيف قيل ومن أول من قصد القصائد ،

وكيف كان الشعر ترجمانا لحياة العرب . والشعر عنده أربعة أبيات :

(بيت يستحسن وبيت يسير ، وبيت يندر وبيت يجن به جنونا ، وما عدا ذلك فكالشجرة التى نفض ثمرها ، وجنى زهرها لا يرغب فيها محتطب ..) . وأما مقياسه فى تقدير جودته ، فانه يقول (وأما ميزانه ، فاعمد الى ما تريد نقده ، فرده الى النثر ، فان استطعت حذف شيء منه لا ينقص من معناه أو كان فى نثره أكمل منه منظوما فذلك الهذر بعينه أو نوع منه ، ولن يكون الشعر شعرا ، حتى تجد الكلمة من مطلعها لمقطعها مفرغة فى قالب واحد من الاجادة ..) .

ان شعر الرافعي الأول لا ينماز عن شعر التقليديين بشيء ذى بال ، وان كانت ظاهرة التقليد فيه تخف شيئا فشيئا ، فهو يقول واصفا عمر بن الخطاب :

لا زينة المرء تعليه ولا المال	ولا يشرفه عم ولا خال
وانما يتسامى للعلا رجل	ماضى العزيمة لا تثنيه أهوال
يريك من نفسه فيما يهم به	ان النفوس ظبى والناس أبطال

وهو يروض القول فى الأخلاقيات ، شأن كثير من الشعراء ، فيقول فى (الكمال فى التربية) :

لكل فتى من الدنيا كمال	فما نقص الورى الا الفعال
ومن لم يرشدوه فى صباه	تحكم فى شبيبته الضلال
فما قلب الصغير سوى كتاب	تسطر فى صحائفه الخلال

وهو يوجه حكمه ومواعظه الى قارئه :

فاسع فى الأرض ان عقبان هذا الـ	ـجو لا يرتضين فيه مكانا
واحذر الناس انما يأمن النا	س صبى يظنهم صبيانا
واركب المجد فى الأمور ولا تجـ	ـبن ان فات بعضها أحيانا

ومسايرة للجو البلاغى السائد ، وفر الرافعى لشعره الحلية اللفظية ، فهو يتعمد (الجناس) فى قوله :

فكل الى الله وبت راضيا فكل ما مسك من عنده

كما يشير هو نفسه الى (الطباق) بين الجهل والعرفان فى بيته :

وما لسيوف الترك يجهلها العدى وقد عرفتها قبل ذاك نحورها

كما يشير الى (التورية) وفى لفظة (العقارب) فى بيته :

وليس اما سعت عقاربها يدب فى غير مهجتى الألم

وهو يكتب فى الخمر تقليدا ، لا عن معاناة وشغف حتى (يكون ديوانه جامعا من كل ما تشتهى الأنفس) كما يقول فى هامش ديوانه ص ٥٤ ، ومن ذلك الشعر قوله :

مل بى عن الورد واسقنى القدحا

فوردها من خدودك افتضحا

وقم بنا نصطبح معتقة واسمح بها فالزمان قد سمحا

وقل لمن لامنى على سفه ما ضرنا ان نابحا نبحا

أما ترى الدن قد جرى دمه كأنه من لحاظك انجرحا

ومنه أيضا قوله الذى جمع فيه أشهر الصور التقليدية فى وصف الخمر :

زفت ولما يفترعها المزاج كما تزف البكر عند الزواج

فهلل الشرب سرورا بها وكبر الديك وصاح الدجاج

كأنهم رهبان فى بيعة قد أوقدوا فى كل كأس سراج

كأننا اذ نحن صرعى بها فرسان حرب صرعوا فى العجاج

واقد وصل به التقليد الى حد الغزل بالمذكر حتى يكون ديوانه قد جمع الأغراض الشعرية كلها !

يا قوام الغصن منثنيا ومثال الحسن والظرف
أنت و (الطربوش) منحرف كهلال الأفق فى النصف

فاذا تعرض لوصف السينما أو السنوغراف كما يسميها ، لا يصفها الا وقبل وصفه لها أبيات غزلية :

كيف فؤادى والهوى شاغل يهيجه المنزل والنازل
ما زلت أخفيه وأخفى به فى الناس حتى فضح العاذل
فعادنا المطل وعدنا له رحماك فينا أيها الماطل
كل أمرىء أيامه تنقضى لا أمل يبقى ولا آمل
وما (السنوغراف) وما مثلت الا الصدى ينقله الناقل
تبعث فيها أمم قد خلت وتجتلى فى لندن بابل

واذا كان القطار من مظاهر الحياة الحديثة ، ومن الموضوعات التى التفت اليها شعراء جيله اظهارا للمعاصرة ، فان الرافعى لم يغفل وصفه فى قصيدتين ، وان كان وصفه يتكىء على نفسه ، فلا نراه يعيد التشبيهات التقليدية كما فعل غيره :

ليس فى قلبه سوى الشوق لكن
كتم الدمع فاستحال بخارا

واذا صاح صيحة البين فينا
ترك العاشقين طرا حيارى

سار يطوى جوانب الأرض طيا
ولو استطاع أن يطير لطارا

كزمان الصبا ونومى اذا نمت
وطيف الحبيب ليلة زارا

أو كمعنى يمــر بالفكــر لا ينقـــا
د أو مثــل خاطـرى لا يجـــارى

يا شــبيه الدجى اذا غابت الشمس
انطلق ســالما وقيت العثـارا

وعلى الرغم من مظاهر التقليد التى بيناها فى شعره – وأغلبه ان لم يكن كله – من شعر الشباب الأول ، فان هــذه المظاهر لم تحجب شخصيته الشعرية كما كانت الحال مع معظم شــعراء جيله باستثناء المجددين أمثال مطران وشكرى وأبى شادى والعقاد والمازنى ، ونحن واجدون فى شعر هذه المرحلة من حياته القول الرائق والبيان المعجب :

عصــافير يحسبن القلوب من الحب
فمن لى بهـــا عصفورة لقطت قلبى

وطارت فلما خافت العين فوتهـــا
أذالت لهـــا حبـــا من اللؤلؤ الرطب

فياليتنى طير أجاوز عشـــها ... فيوحشها بعدى ويؤنسها قربى
وياليتها قد عششت فى جوانبى ... تغرد فى جنب وتمرح فى جنب
ألا يا عصافير الربى قد عشقتها ... فهبى أعلمك الهوى والبكا هبى
أعلمك النوح الذى لو سمعته ... رثيت لأهل الحب من شغف الحب

خــذى فى جناحيك الهوى من جوانحى
وروحى بروحى للتى أخـــذت لبى

واذا كان التقليد قد استبد بكثير من شعراء جيله الى الحد الذى جعلهم لا يعيشون بأفكارهم وصورهم الا فى دائرة الجو الصحراوى كالجارم وعبد المطلب وعبد الله عفيفى وأضرابهم ، فان الرافعى قد حقق المعاصرة فى بعض شعره من ناحية الموضوع ،

فله قصائد من وحى الحياة اليومية ، تلك التى أغفلها الشعراء التقليديون ، فهو يصف حسناء ركب معها الترام :

ركبت لحينى فى (الترام) عشية
أرى الفلك الدوار لاحت كواكبه

كما وصف أخرى (تبيع الليمون المعروف باليوسف أفندى)، كما وصف هيفاء تمشى على حبل فى (تياترو) :

طلعت والظلام يحسده الصبـ
ـح فخلنا فى الأرض شمس السماء
ورأت أكبد الورى فى ثراها
فمشت من دلالها فى الهواء

والرافعى فى أدبه كله ملتفت الى القمر ، يذكره شاعرا ، ويذكره ناثرا ، وهو يربط بينه وبين الحبيبة فى كثير من صفحات (حديث القمر) و (أوراق الورد) ، مثلما يفعل فى البيتين التاليين :

تالله لو جددوا للبدر تسمية
لأعطى اسمك يا من تعشق المقل
كلاكما الحسن فتانا بصورته
وزدت أنك أنت الحب والغزل

وككل شاعر يبتدىء مقلدا ثم يقف على رجليه شاعرا ناضجا ، كان الرافعى ، الذى تطور شعره تطورا حثيثا ، فابتدأت مظاهر التقليد تقل ، وابتدأت صياغته الشعرية تتماسك ، وأخذت الرقة فى شعره الغزلى تتضح :

كتابها قد جاءنى حاملا لقلبى الخفاق قلبا خفق
والتمعت فيه نجوم المنى فى أسطر مثل سواد الغسق

وأعرف القبلة فى موضـــــع	ياوح لى كالزهـــر لا كالورق
وكم به سطر الى آخــــر	كالصدر للصدر دنا فاعتنــق
وكم به معنى أنام الهـــوى	وكـم بــــه معنى أتى بالأرق
سألته كيف رأى وجهــــا	فقــــال : جل الله فيما خلق
قلت : وذاك الخد لما استحى	فقال مثل الفجر فيه الشفق
قالت : وذاك الثغـــر ما أمره	فقـــال لما ذكرتك « انطبق »
ياثغرها فيك نسيم النـــدى	فكيف قـــلبى فى نداك احترق

* * *

وتمر السنون ، والرافعى لا يكتب الا القليل من الشعر ، وتتحول شاعريته الى مجال النثر الرحيب ، ويحس الرافعى اشتياقا الى الشعر .. فيقول فى احدى رسائله (ضقت بترك الشعر كل هذه المدة ، وهو فى نفسى أعظم من الكتابة ، وان كان متعبا شاقا ..) .

الا اننا نرى أن شاعرية الرافعى قد تحققت فى كمالها ونضجها فى كتاباته النثرية ، وبخاصة فى (أوراق الورد) ، فالرافعى شاعر كبير فى نثره ، وشاعر وسط فى قصيده المنظوم ، ولعل قصيدته النثرية (نشيد اليمامة) التى قالها على لسان « مارية » فى قصة (اليمامتان) المنشورة فى (وحى القلم) ذات مستو لم يصل اليه شعره المنظوم .

يقول فى هذا النشـــيد الذى تتحـــدث فيه « مارية » عن غرامها بالأمير القائد العربى :

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها

تركها الأمير تصنع الحياة وذهب هو يصنع الموت

هى كأسعد امرأة ترى وتلمس أحلامها

ان سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق
صغيرة كهذا البيض ٠

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
لو سئلت عن هذا البيض لقالت : هذا كنزى
هى كأهنأ امرأة ، ملكت ملكها من الحياة ولم تفتقر ٠٠
هل أكلف الوجود شيئا كثيرا ٠ اذ كلفته رجلا
واحدا أحبه ؟

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
الشمس والقمر والنجوم كلها أصغر فى عينها من هذا البيض
هى كأرق امرأة عرفت الرقة مرتين : فى الحب والولادة
هل أكلف الوجود شيئا اذا أردت أن أكون
كهذه اليمامة ؟

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
تقول اليمامة : ان الوجود يجب أن يرى
بلونين فى عين أنثى ٠٠
مرة حبيبا كبيرا فى رجلها ٠٠ ومرة حبيبا صغيرا
فى أولادها ٠٠
كل شىء خاضع لقانونه ، والأنثى لا تريد أن
تخضع الا لقانونها ٠

* * *

أيتها اليمامة لم تعرفى الأمير ٠٠ وترك لك فسطاطه !
هكذا الحظ : عدل مضاعف فى ناحية ، وظلم
مضاعف فى ناحية أخرى ٠
احمدى الله أيتها اليمامة ، أن ليس عندكم لغات
وأديان ٠
عندكم فقط الحب والطبيعة والحياة ٠

* * *

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
يمامة سعيدة ٠٠ ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان
نسب الهدهد الى سليمان وستنسب اليمامة الى عمرو
واها لك يا عمرو ما ضر لو عرفت اليمامة الأخرى ؟

* * *

لقد حكى الرافعى فى قصيدته النثرية هذه حب « مارية » لـ « عمرو » مبتدئا ببيت يتكرر فى كل مقطوعة ، كمقدمة موسيقية لا شك أنها من وحى حصيلة قراءاته لشعر المجددين ٠ وعلى لسان « مارية » يكشف قلب الأنثى وأشواقها الطبيعية فى بساطة وتلقائية ، قلما توفرتا فى شعره المنظوم ٠ واذا كان الرافعى لا يذكر فى شعرائنا المرموقين اذا راجعنا تاريخ شعرنا الحديث منذ أوائل هذا القرن ، فانه يفرض نفسه على تاريخ هذا الشعر بأناشيده الوطنية التى ذاعت على ألسنة الشباب ٠

والرافعى ملتفت الى الشعر الوطنى منذ مطلع حياته الشعرية ، فله فى الجزء الأول من ديوانه الصادر عام ١٩٠٣ قصيدة بعنوان (الوطن) ومطلعها :

بلادى هــواها فى لســانى وفى دمى

يمجــدها قلبى ويدعــو لهــا فمى

وقد ذاعت هذه القصيدة على ألسنة الطلبة أعواما ، وكذلك ذاع نشيده المعروف :

الى العــلا .. الى العــلا بنى الوطن

الى العــلا كل فتـــاة وفتى

وكانت احدى اللجان الأدبية قد اختارته نشيدا قوميا ، بعد أن سحبه الرافعى من مسابقة أقيمت لتأليف نشيد قومى مصرى ، وقد نال جائزة هذه المسابقة أحمد شوقى ، وكانت هذه النتيجة سبب معارك أدبية شارك فيها الرافعى والعقاد . الا أن نشيده (اسلمى يا مصر) ، كان النشيد الذى رددته أجيال من الطلبة والشباب عامة ، حتى أصبح نشيد مصر القومى منذ عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٣٦ . وفى هذه السنة الأخيرة ، أعلنت الحكومة عن مسابقة لتأليف نشيد قومى ، فتقدم الرافعى بنشيده المعروف :

حمـــاة الحمى .. يا حمـــاة الحمى

هلمـــوا .. هلمـــوا لمجـــد الزمن

لقـــد صرخت فى العـــروق الدمـــا

نموت .. نموت .. ويحيـــا الوطن

الا أنه لم ينل الا الجائزة الثانية ، ومع ذلك ذاع النشيد فى مصر كلها .

وقد وضع الرافعى (نشيد الملك) ، و (نشيد بنت النيل) ، و (نشيد الطلبة) .

فاذا قلنا ان الرافعى « شاعر الأناشيد » الى يومنا هذا ما عدونا وجه الصواب . ولست أحب أن أختم حديثى عن الرافعى شاعرا

دون أن أذكر له قصيدته الجميلة (ما نفع رقة روحى) ، فهى من أحلى شعره :

يا من لنضو طريح مجمع من حطام
بقية من سلو على بقايا غرام
وقطعة من جفاء فى قطعة من سلام
أضيء كالنجم لكن فى وحدة وظلام
وما أكابده نارا يروه نورا أمامى
ما نفع رقة روحى تندى كطل الغمام
وكل ما هو حولى كحلق عطشان ظامى
يا واصلا بالمعانى وهاجرى فى الكلام
مخاصمى فى نهارى مصالحى فى منامى
من العبوس كلام معناه معنى ابتسام
ولن يغير جسم الو داد ثوب الخصام
ما نفع رقة روحى تندى كطل الغمام
وكل ماهو حولى كحلق عطشان ظامى .

٤ ـ الرافعى ناقدا :

كتب الرافعى فى النقد ، وان كان أغلب ماكتبه فى هذا الباب مساجلات هى أدخل في باب المعـــارك القلمية منها فى باب النقد بمعناه العلمى .

ان اقتصار الرافعى على الثقافة العربية قد حدد لونه النقدى ، فهو اذا تعرض لنقد الشعر مثلا نظر اليه كما نظر الناقد العباسى ، يتسقط الأخطاء النحوية واللغوية ، ويستجيد المعنى أو لا يستجيده، ويتتبع الفكرة ليرى أنها مبتكرة أو مسروقة الخ ..

وهو شوط هام فى تاريخ النقد ، ومرحلة من مراحله ولكن النقد فى عصرنا هذا قد تطور تطورا كبيرا ، فقد دخلته علوم كثيرة ، ووضعت له أسس وكونت فيه مدارس . وهو بهذا المفهوم بعيد عن الرافعى وأضرابه ، فضلا عن أنه نقد غربى عرفناه بالاطلاع والممارسة ، اما بالرجوع الى مراجعه بلغاتها أو مترجما فيما ترجم الى العربية .

ولقد بدأ الرعيل الأول من المجددين أمثال شكرى وأبى شادى والعقاد والمازنى وطه حسين بعد اطلاعهم على قواعده وأصوله فى اللغات الأجنبية وبخاصة اللغة الانجليزية ، ينظرون الى العمل الأدبى من خلال هذه القواعد والأصول ، ولم تبدأ حركة ترجمة المؤلفات النقدية الغربية الا منذ سنوات قليلة .

وليس هناك مثل أتم وأوفى يمكن أن نذكره هنا لنقد الرافعى ، الا ما كتبه فى كتابه (على السفود) نقدا للعقاد . وليس من شك فى

أن الرافعى قد احتشد لهذه المقالات التى جمعها بعد ذلك فى هذا الكتاب ، ففيه كل خبراته النقدية ، وهى كما سنرى من خلال النموذجين اللذين سنذكرهما ، لا تخرج عن خبرات الناقد العربى القديم مفهوما وشكلا ، فالرافعى لا ينظر الى وحدة القصيدة العضوية ، أو الموسيقى الداخلية لها ، أو استواء المناخ النفسى الخ .. مما يمكن أن تسلط اضواؤه على القصيدة .

ولعلنا نلمس كل ذلك فى صفحات ٧١ ، ٧٢ من كتابه (على السفود) .. يقول :

(نعود الآن الى استيفاء النقد فى قصيدة (الخمرة الالهية) اجابة لطلب ذلك الكاتب وتوفية لما مر بك فى السفود الرابع .

قال عباس محمود العقاد الملقب بصاحب مرحاضه :

تشابه فى عين النديم وما انتشى
فوارغ صف كالثريا وملآه

كؤوس كجام السحر يكشف وحيه
لعينك من سر العوالم أخفاه

وفسر جام السحر فى الشرح بقوله .. هى الكأس التى يزعم السحرة أن من نظر اليها انكشف عنه الحجاب .

فأما البيت الأول فسخيف بالغ السخف ، لأنه يريد أن النديم متى نظر الكؤوس خالطه السكر ، فتشابه عليه ما امتلأ وما فرغ .. وهذا بعينه قول ابن الفارض :

ولو نظر الندمان ختم انائها
لأسكرهم من دونها ذلك الختم

وكلمة (فوارغ صف) من لغة الشيالين والجمالين لا من لغة الأدباء . ولا ندرك كيف تذكر فى وصف الخمر ، الا اذا كانت من

ذوق عامى كذوق العقاد . وانظر كيف صنع الشاعر الحقيقى حين أراد أن يأتى بهذه المادة اللفظية فى شعره ، فقـــال واصفا الخمر وصفاءها حتى كأنها الكأس :

خفيت على شرابهـــا فكأنمـــا
يجـــدون ريا من اناء فـــارغ

وهذا المعنى مولد من قول أبى تمام :

تخفى الزجاجــة لونها فكأنهـــا
فى الكـــف قائمة بغـــير اناء

وقد تلاعب الشعراء به وأكثروا فيه على صور مختلفة ، ولكن أحسن ما قيل فى الاشتباه على النديم من تأثير الخمر قول القائل :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها
وفى الزجاجـــة باق يطلب الباقى

فكـــــل شىء رآه ظنه قـــدحا
وكل شخص رآه ظنه الســـاقى

ونظن ان ابن الفارض أخذ من ابن الزيات فى قوله :

كفـــانى من ذوقها شمهـــا
فرحت أجر ثيـــاب الثمـــل

فنقله ابن الفارض من الشم الى النظر ، وسرق العقـاد سرقة عمياء لا نظر فيها ! ..) .

ويمضى الرافعى على هذا النهج ، متتبعا ما يراه — فى نظره — خطئا فى اللغة ، أو النحو ، أو العروض ، وهو منهج يتناول الجزئيات ، ويحرص على نقد الشكل ، دون غوص الى أبعاد العمل الأدبى .

نموذج كامل من أدب الرافعى
(الربيطــة)

« الربيطة » (١)

واطلع فى سحابى هذا الشيطان الذى تتلألأ على وجهه مسحة ملك ، فهو أخبث الشياطين ، لأنه يسوق الى الهلاك فى نزهة على شاطىء نهر الحياة .

هى فلانة ، كانت امرأة فرنسية ربيطة لرجل عرفته قديما لأعرفها منه ، فأكتب عنهـــا رأى العين وأكون أفهم بها وأدنى الى حقيقتها ، كما يريد عالم الطبيعة أن يكتب عن بركان يتأجج ، فهو يدلف اليه ، يطأ على أرض كأن ترابها حريق يتنفس آخر أنفاسه !

ما ساح رجل فى العمران ، ولا ضرب فى مجهل من الأرض ، ولا ضل فى تيه منها ، ولا كشف للناس غمضا من غموضها (٢) ، ولا تطوح فى بحر من بحارها — الا وأنت واجد من مثل ذلك معانى فى نفوس النساء ، كأن هذه المرأة تمثال مصغر خلق بمعانيه فى مقابلة الأرض بمعانيها ، فهى فى روح الرجل اما الخصب أو الجدب ، وهى له فى الحياة اما الملح أو العذب ، وهى منه العامر والخراب ولكن فى القلب !

* * *

كان صاحبنا فتى تلمع عليه غرة الشباب ، وقد رق حتى كاد يخالط حد الأنوثة ، ولان حتى قارب أن يفوت معنى الرجولة ،

---

(١) هى المرأة البغى ترتبط بأجر أو بعقد مدنى .. فى بيت رجل ، فتنزل منزلة الزوجـــة على أنهـــا مدبرة بيتـــه ، وتكون ســـاقطة المعنى شريفة الاسم Maitresse .

(٢) الغمض : المكان المجهول من الأرض .

وظرف حتى أوشك أن يكون انسانا تتفتح فى روحه معانى الزهر .

ولكنك اذا كنت رجلا صحيحا أمررته على عينيك كما تمر كتابا لا تريد أن تقرأه .

فقد تمدن فى أوروبا ولبث عن قومه ما شاء الله ، ثم رجع اليهم كأن أمه لم تلده ، وكأن أباه جده الأعلى .. فبينه وبين أبيه هذا بضعة أجداد منهم المسيو أو المستر أو السنيور أو (الهر) ، وأصبح يحس أن كل شيء فى هذا الاجتماع الشرقى مسلط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغلظة والجفاء والعنت والأذى ، كأنه « رحمه الله » .. ابن الضباب ، فلما برز الى هذه الشمس وضحا فى أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخر !

وكان من هؤلاء الفتيان الذين اذا تعلموا فى أوروبا نفوا جهلهم بالعلم ، ثم نفوا علمهم بجهل آخر ، ثم جاءوا كحرفى النفى : ما ولا .. فليس منهم الا التكذيب والانكار والشك ، وتراهم أظرف وأجمل وأزهى من فراشة الربيع ، لا يريدون الحياة الا أزهارا ، ولا يطيقونها الا ربيعا ، وعلى أزهارهم وربيعهم ، فليس لنا منهم الا نقط من الألوان ، وأصوات من الطنين .. وأجسام ليس فيها رجالها !

* * *

سألت هذا الفتى مرة : أنت مصرى ؟

قال : ووطنى صميم !

قلت : أفترى أنك تصلح فى علمك وتهذيبك أن تكون مثالا يتأسى بك نشء بلادك ؟

قال : انى لأرجو ذلك .

قلت : وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية ومساواتها بالرجل فى الحرية المطلقة ، وبعثها من هذه القبور التى تسمى المنازل ؟

قال : ذلك مذهبى .

قلت : فكيف ترى اذا اقتدى بك المصريون فأصهروا الى الأوربيين ، وخلطوا الشمل بالشمل ؟

قال : لعل ذلك خير الطب لبلادنا ، فلا معدل عنه فى رأيى ، اذ يأتيها بالدم الجديد ، ويدمج فى طباعها النظام والدقة ، ويبنى البيوت من داخلها .

قلت : أحسنت بارك الله عليك ، فكيف ترى اذا سألناك التسوية وقلنا لك دع أختك تصب الى رجل أوربى وتتزوج منه اجارة .. وتأت به الى مصر كما أتيت أنت بصاحبة بيتك ! ثم لتفعل كل مصرية فعلها ، فيكون لكم أوربيات ويقوم عليهن أوربيون .

قال : أعوذ بالله .

قلت : فعل الله بك وفعل ، أفيبلغ من غفلتك أن لا تعرف لعنة الله الا اذا رأيتها ملء مملكة ، ولا تعرف حق وطنك فيك الا حين تراه غريبا منقطعا لا حق له فى واحد من أهله ، ولا تدرك واجب التضحية بلذتك وشهوات نفسك ، الا بعد أن ترى الوطن من اضطراب الموت فى مثل حال الذبيحة تدحض برجلها تحت سكين الذابح ؟

قال : فما أنا وأمثالى الا شذوذ من القاعدة التى يجب أن تبقى أبدا قاعدة .

قلت : فعليكم غضب القاعدة ومقتها وسخطتها ، والله لأن تفجع البلاد فيكم جميعا ، وتستركم بالقبور رمة بعد رمة ، خير من أن تتقلد منكم بلية الحياة فى اختلاط الأنساب وارتداد الأسماء العربية عن دينها ، وكساد النساء الشرقيات ، وتخنث الرجال الشرقيين ، وتدسس هذه العروق الفاحشة اللئيمة فى ذرية الوطن !

قال : فكم من امرأة هى حمل على ظهر زوجها ؟

قلت : وكم من امرأة افرنجية هى كية على قفا صاحبها .

قال : فلماذا تصنع ونساؤنا جاهلات لا صبر عليهن ؟

قلت : أفتزهق روحك اذا مرضت أم تطب لمرضك فى أناة وصبر ؟ وهل تفر من وطنك اذا ابتلاك بتضحية أم تثبت وتتجلد ؟ ثم ماذا أفدنا من علومكم اذا لم يحمل كل عالم منكم جاهلة منهن فيعلمها ويثقفها ويخلصها اخلاص الذهب الصافى ويربح ثواب الوطن فيها ؟ واذا كنتم تهملون نساء بلادكم لأنهن جاهلات ، فحدثنى أفلا يزيدهن ذلك جهلا وضياعا ، ويضاعف مصيبة البلاد فيهن وفيكم ، ويكون تركهن الذى قد يستصلح ، سببا لما وراءه من الفساد الذى لا صلاح له ؟

وهل ترون المرأة الوطنية منكم الا كالزهرة : نضرتها فى غصونها وأوراقها ، فاذا طرحتها غصونها عمل منبتها الاجتماعى فيها — وهو التراب — حين تتصل به ، عكس ما كان يعمل حين لم يكن يصل اليها الا من فروعها وأوراقها غذاء يحمل روح الماء ورح الشمس ؟

أما والله انكم فئة لا تعد الا فى مصائب وطنها ، وانكم لكالأجنبى ، ما دام أحدكم لا يصل أمومة أولاده بتاريخ أمه ، وانكم لكالغاصب ، ما دمتم تغصبون حق نساء الوطن فى رجال الوطن ، وانكم لكالعدو ، ما دام كل واحد منكم حربا على بيت .. ألا فدعونا من الجاهلين ، فقد يكون من بعض عذرهم الجهل ، ومن المتلصصين ، فمن عذرهم الحاجة ، ومن المفسدين ، فمن عذرهم سوء التربية ، ومن الساقطين ، فعذرهم ضعف النفس ، ومن الخاملين ، فعذرهم الترك والاهمال ، ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى ، فكلها مسوغة أعذارها المحمولة على محاملها ، وكلها أقرب الى الدهماء منها الى المتعلمين أخلاط الناس منها الى الخاصة ، والى السفلة منها الى العلية .. ولكن ما عذركم أنتم عن شهوات أنفسكم وايثاركم هذه الشهوات واستهتاركم فى هذه الأثرة ، يعجز

أحدكم أن يكسر جماح نفسه فيجنى على نفس من نساء وطنه ، هى التي زهد فيها واستبدل منها ، وعلى نفوس من أبناء وطنه هم الذين سيعقبهم من ذريته ويأتى بهم للبلاد أجساما غابت قلوبها ، ونفوسا بردت دماؤها ، ينزعهم العرق الأجنبى من أمهاتهم اللائى ولدنهم اذا حمى دم البلاد لبعض أغراضها ، ويكونون فى أمراضها من أسباب موتها ، وفى صحتها من أسباب أمراضها .

ما لكم تنزلون أنفسكم منزلة الطفل البكر من أهله ، ليس له الا حظوظه وشهواته ، مسوغا كل ما يقترحه عليهم ، لأنه هو كان اقتراحهم على الله ، محمولا على قلوبهم ، لأنه بعض قلوبهم ، يفسد المتاع ، ويحطم الآنية وتنزو به النعمة نزوتها ، فتجعل نصف عقله مجنونا ، ونصف أدبه حمقا ، ونصف المنفعة به ضررا ، ونصف ظرفه عنتا ، ونصف لينه مشقة ، ويكون خيره نصف الخير ، أما شره فشر اثنين • فهلا كنتم من أهل بلادكم كالأب من أولاده : يرى حق ضعفهم أكبر من الحق الذى لقوته ، وواجب مرضهم فوق الواجب لصحته ، فهو يبذل سعة نفسه فى ضيق أنفسهم ، ويحملهم صغارا ليجعلهم كبارا ، ويصبر عليهم حمقى ليجعلهم عقلاء ، ويرى عمره كأنه من بعض أرزاقهم وهو لا يستخلف من العمر شيئا ، وحواسه كأنها من بعض خدمهم وماله غير حواسه ، ويراهم كأنما جاءوا اليه من السماء بعد أن اشتروه من الله ، وباعه الله منهم بتلك النقطة الشابكة فيهم من دمه ؟

ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بمحاريث ، بدلا من هـــذه المواريث ، وجئتم بالسماد بدلا من هذا الوساد (١) .

وبالبهائم للسوانى ، لا بالحلائل والغوانى (٢)،وبضائع الحوانيت،

---

(١) الوساد كناية عن الزوجة نفسها ، والمواريث كناية عنهن أيضا .

(٢) السوانى : جمع سانية وهى السواقى تدور فيها البهائم ، والحلائل : الزوجات .

لا ببضائع انطوانيت .. وليتكم اذ كنتم رجالنا لم تغلبكم نساؤهم ، واذ كنتم سيوفنا لم تأسركم دماؤهم ، ويا ليتكم لم تتنعموا وتتأنثوا ، فكانت البلاد تجد منكم أهل البأس ، ولم تتعلموا وتتخنثوا ، فكانت الأرض على الأقل تعرف منكم أهل الفأس !

* * *

ذلك هو الرجل ، أما صاحبته فامرأة فرنسية ، جميلة الوجه فى طلعة الصبح ، شابة الجسم شباب الضحى ، ملتهبة الأنوثة كشعاع الظهيرة ، رقيقة الطبع رقة الأصيل ، زاهية المنظر فى مثل شفق المغرب من تأنقها ، ثم هى تنتهى من كل ذلك الى مخبر أشد ظلمة من سواد الليل .. ومن أين اعتبرتها ألفيتها رذيلة مهذبة يترقرق فيها ماء العلم ويجول فى حسنها شعاع الفلسفة ، كأنها عين فاتنة تدور فيها دمعة دلال !

ولم أكد أراها حتى أخذنى جمالها ، فان لها عينين ركبتا تركيبا بجر المصائب على القلب ، تلقيان أشعة ضاحكة أو عابسة يخلق منها للقلوب حوادث وتواريخ ، وترمى بنظرات تبرىء الصدور أو تمرضها ، وتبسم بوجهها كله نوعا من الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية فى وجهها قبلات ، أما افترار شفتيها فهو جمال على حدة يشبه نقل معانى الخمر من فم الى فم .

امرأة ساحرة لا أدرى ان كانت بنيت على السحر أو على الحب ، ولا ان كان هذا الحب قد خلق لعنة عنيها أم هى خلقت لعنة عليه ، والحب دائما بركة امرأة ولعنة امرأة ! والتى تزرعه فى كل مكان هى التى لا تحصد منه شيئا ، فان نالها شىء منه كان تعبا عليها روحا لسواها .

وأشد ما فى هذه المرأة الجميلة من الفتنة ، اجتماع شهواتها فى صوتها الندى المستطرب المتحزن الذى لا يخلو أبدا من حرف تسمع فيه همس قبلة من قبلاتها !

بيد أنى مع كل ذلك استعصمت بفلسفتى وحكمتى ، فلم أرها الا فى مثل حريرة التفاحة ، اذا أفرط عليها النضج ، فابيضت واحمرت وفاحت ولمعت ، وان العفن لباد من تحتها يحذر منها وينذر ، وفى مثل فروة الدب استرسلت ولانت فى نعومتها ، ولكن لا منفعة منها الا بقتل لابسها وازهاق الحيوان كله فى سبيل الجمال الظاهر من جلده .

ونظرت اليها نظرة تخطت بها الشباب وأيامه ، فاذا هى بائسة أملق الدهر حسنها ، وكان ذهبا على جسمها وفضة ، واذا هى عجوز هالكة قد انحنت تحت لعنات ماضيها وتركتها الدنيـــا كالسجن المتهدم ، لا يذكر مع انتقاضه الا بلصوصه ومجرميه وعقابهم وآثامهم ، وتشقى بمعانيه بعد الخراب حتى حجارته وحتى ترابه !

وأبصرت فى هذه الحسناء اللعوب التى تستوقدها الضحكة بعد الضحكة ، تلك الهامدة المريضة التى تطفئها الحسرة بعد الحسرة ، وسقطت الشجرة الخضراء النامية ، فاذا فى مكانها جذع خشبى ملقى زهد فيه نور السماء وطين الأرض معا .

وتمثلت لى هذه المتكئة على طرازها وأرائكهـــا تتبرج فى سندسها وحريرها ، فرأيتها ممدودة فى حفرتها ، مسجاة فى أكفانها ، قد هيل عليها ترابها ولم يرحمها راحم ولا النسيان يستر رذائلها عند من عرفوها ، وقد اجتمع عليها بعد عشاقها من دود الناس .. عشاق آخرون من دود الأرض ، ويفنى جسمها حين يفنى ويبقى ضميرها الروحى الى الأبد ضمير مومس !

فلما وصفت أمرها على ما خيل الى من عاقبتها ، اذا هى تفور كما يفور النبع القذر بالحمأة التى فيه ، واذا هى كالخشـــبة المتقدة فى حريقها : من فوقها ظلل من النار ومن تحتها ظلل : واذا جمالها قد استحال فى عينى ، وانفصل منها فأظهرها وظهر معها فى بريق الزجاجة من الخمر بجانب السكير المتحطم ، تتساقط نفسه

مرضا وسكرا ، فكل ما كان فيها (١) جمالا فهو فيه أقبح القبح !

ورثيت لها أشد رثاء وأبلغه فى الرحمة والرقة ، حتى عادت نظراتها تقطر على نفسى دموعا سخينة كدموع الذل . ويا حسرة قلبى من الاشفاق عليها وأنا أرى فى احمرار جمرتها سواد فحمها ، وفى أسباب سرورها أسباب همها ! ويا لهفى عليها اذ أرى هذه الجميلة التى لم تنظر أكثر ما نظرت الا الى خطيئة ، ترفع نظرتها أحيانا الى السماء بقوة فى داخلها ، كأنها تقول لمن يفهم عنها : ان هنا القدر وهناك المقدر !

ويا بؤسها حين لم تعد تظهر فى روحى الا كما يتخايل ظل القمر فى الماء ، أنظر فيه الصورة من غير معنى ، والضوء من غير قبس ، وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر !

* * *

وألمت بما فى نفسى ، وكانت تقرأ فى وجهى قراءة ، فانه ليس ذو عينين ينكشف لعينيه سر العاطفة الذى يترقرق فى الدم الا من خالط القلوب ، وغلب عليها بخير ما فى الخير أو شر ما فى الشر ، فهو يتدسس اليها مع ملائكتها أو مع شياطينها ، وانما خلقت هذه المرأة وأمثالها فى هذا الجمال وهذا الظرف وهذا الفساد ، لتستطيع أن تمزج الشيطان بقلب من تغتره مزج المادة والمادة بواسطة بينهما من قوة ثالثة متهيئة لهما معا ، فهى بجوهرها مسلطة على القلب غالبة على أمره كتسليط السرور والكآبة وغلبتهما طبعا بما فطر الانسان عليه .

وقلما لصق الشيطان بقلب ما لم تكن فى هذا القلب مادة من اللذة أو الكآبة ، فكلتاهما كيمياء الخطيئة والمعصية والشك . ولرب عابد زاهد طاحت به كآبته ، فقذفته الى النار كما تقذف

---

(١) أى الزجاجة .

بالفاجر لذاته ، فيلتقيان منها فى غمرة واحدة ، وان كانا فى العمل على طريقين متدابرين .وما أشبه اسراف اللذة أن يكون الرجاء اليائس ، فالمستهتر بهذه اللذة يغلو فى استمتاعه غلو من ظلم نفسه لا يتحرج ولا يتورع ، وما أشبه اعنات الكآبة (١) أن يكون اليأس الراجى ، فالمبتلى بالكآبة يجفو عما عداها جفاء من ظلم نفسه لا يتسمح ولا يترخص . والنفس الغالية التى جاوزت قدرها ، كالنفس الجافية التى انحطت عن قدرها ، كلتاهما على طرف يمين الشر وشماله .

* * *

ونظرت الى تلك المرأة نظرة حزت فى قلبى ، لأنها لا تسألنى المدح وكذلك لا تريد منى الذم ، وبعد أن رضيت أن تسمع لى كأنها تقرأ كلامى فى كتاب ، وواثقتنى على أن تعتبرنى مخاطبا فكرها دون شخصها ، ومحاورا فلسفتها دون تاريخها ،

قالت : أحسبك لست كغيرك من الناس .

قلت : ولا كالملائكة .

قالت : فتعرف الخطيئة الانسانية وتقدرها قدرها ؟

قلت : وأعوذ بالله منها واتحاماها !

قالت : وتعرف ضعف الطبيعة !

قلت : ومعاندتها وصلابتها أيضا .

قالت : فكيف ترانى : ألست نصف المسألة السماوية على الأرض ، وهل أنا الا معنى متجسم من معانى القدر : وهل خرجت من سلالتى الا كما خرجت الخمرة من عناقيدها !

وهل خلقت جميلة غالية كالدينار الا لتشترى بى بعض أوقات السعادة .

---

(١) ارهاقها وشدتها على النفس .

قلت : أما المسألة السماوية ، فان كنت نصفها فقد كان الشيطان نصفها كذلك ، وأما القدر المتجسم فلعل الحريق فى بيت من نكب به أجمل وأخف احتمالا ، وهو مع ألوانه الفنية حريق .. ولا يسمى أبدا الا حريقا ، وأما الخمر فهل هى الا عفونة أسكرت لأنها عفونة ، وأما الدينار الذى تشترى به أوقات السعادة ، فهو نفسه الذى يغرى اللصوص ويوجدهم ، واذا كانت هذه السعادة - كما تصفينها - فى نشوة الخمر ، فهل تشترى الخمر الا وفيها سكرها ومرضها وجنونها .

قالت : فحدثنى لم كان الحب اذن ؟ وهل خلق الا للاستمتاع به من حيث يتفق وعلى أحسن ما يتفق .

قلت : انما خلق الحب قوة ليقيد بقيوده كسائر القوى الطبيعية ، فأنت تصدعين عنه كل قيوده وتتخذينه تجارة فى النفوس فلا تردين يد لامس ولا تمتنعين على دعوى فيها ثمنها ، وبذلك تجرين مجرى القوة المدمرة ومن ها هنا كان لك فى الاجتماع الانسانى شأن ليس كشأن المرأة ، بل كشأن المادة ، وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منك منزلة المطافىء المعدة للحرائق ، وبعضها بمنزلة السجون المرصدة للجرائم ، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهيأ للتاريخ السيىء . وما ظلمك الاجتماع فى شىء ، لأنك أنت فى نفسك ظلم له ، وان الدواء الذى يبرىء من المرض لا يعد مرضا للمرض ، وأهون بذلك اذا عد ما دام يبرىء من العلة ، فان درء المفاسد قبل جلب المنافع ، ودرء المفسدة هو فى نفسه منفعة !

قالت : فكأنك تذهب الى القول بأن مثلى مثل العقرب والحية وغيرهما مما لدغ أو نهش أو سم ، وأن دأبى فى الاجتماع كدأبها ، فليس لها الا القتل حيث وجدت ، ومثل الأوبئة والحميات وما قتل وما أعدى ، فليس الا مدافعتها أو الفرار منها فرارا بالحياة لا بشىء دونها ، وكأنى فى رأيك لست مخلوقة كالمرأة ، بل كحيوان للأذى والمقت والخوف .

قلت : بل مخلوقة مثل كل امرأة كانت وكل امرأة تكون أو هى كائنة ، ولكن فيك من الزيادة عليها زيادة ماء السيل على ماء النهر ، وزيادة الحدة على الطبع الرزين ، وزيادة الطيش على العقل ، أفاذا طغى النهر فأفسد وخرب ، وفارت النفس فحمقت واعتدت ، وطاش العقل فزل وأخطأ ــ نهض ذلك عندك عذرا فى وجوب التخريب والاعتداء والخطأ وتسويغها ، ووجب من ثم أن تعتدل هذه الصفات الجائرة على قلوب الناس ، وأن يطمئنوا اليها ويرضوها مذعنين ، فلا يقيموا على النهر العاتى جبالا من السدود ، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجنا من الحدود ، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم ، ان كان عندك الفرار فعندنا القيود ؟

قالت : كلا ما تبلغ بى الغفلة هــــذا المبلغ ، ولقد درســـت وبحثت ، وفى هذا الرأس ما فى رأس رجل عالم فلا تظن غيره ولكن ان أجن لا أجن الا على نفسى ، وهى لى وحدى وأنا حرة كيف أتولاها ، أفأنت رادى الى العبودية ؟

قلت : أنت حرة ما شئت وما وسعتك الأرض اذا كنت لنفسك ، واذا كنت لا تتصلين بأحد من الناس اتصال العلة المهلكة أو المعجزة أو المذهلة أو اتصال الرذيلة السامة بالدم النقى !

قالت : فانى لا أتصل بأحد ، ولكنهم يغرمون بى ويتنافسون على فأجد فى تنافسهم لذة من أمتع لذاتى .

قلت : وكذلك نردم الحفرة اذا اعترضت طريق السابلة وقاية لمن عساه يغفل فيعثر بها : فان بلغت أن تكون هاوية طبيعية لا حيلة فيها ، ومردت بها طبيعتها المنخسفة ، ميزناها بالعـــلامات وضبطناها بالحدود وسميناها بالأسماء وجعلناها آية التحذير من الهلاك ، حتى لا يزل أحد فيتردى فيهـــا ، واذا كان من لذتك أن تشهدى اقتتالهم عليك ، فهذا حسبك فى أن تعاستهم أن يقتتلوا ، وكنت ولا جرم فى لغة الاجتماع من بعض معانى الشقاء والتعاسة !

.. ثم ان فى تلك اللذة منك دليلا حيوانيا على أن فى طبعك من اناث البهائم الشاردة التى تقف ليتناحر عليها ذكورها وقوف المملكة المباحة تنتظر المنتصر ، فتقتل بإباحتها كل النفوس التى زهقت حولها ، ولو هى لم تكن كذلك لم يكن شىء من ذلك ، فكنت ولا جرم فى لغة الاجتماع من بعض معانى البهيمة !

.. ثم ان هذا وذلك فيك نذير بانقلاب الانسانية ونزولها دون حدها ، وتراجعها فى سبيل الجاهلية الأولى ، واتصالها من كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأن لم يكن علم ولا دين ولا تهذيب ، فكنت ولا جرم فى لغة الاجتماع من بعض معانى الرذيلة والسقوط !

قالت : هم لا يتناحرون على بأنيابهم ولا مخالبهم ولا قرونهم .. وانما يفعلون ذلك بأموالهم .

قلت : لا جرم كنت بهذا فى لغة الاجتماع معنى من معانى السفه والفقر والخراب !

قالت : ولكن كم من رجل أحبنى فرأى فى آية الابداع الالهى ، فكان لا ينالنى الا كما ينال المؤمن لذة قلبه .

قلت : فمنذا أبدع الأصنام وسلطها على الهوى ، ثم سلطها بالهوى على كهنتها وعابديها ، فما يرون الحجر المعبود حجرا الا لأن عليه بناء ملكوت السموات ، ولا البقرة المؤلهة بقرة الا لأنها تجر محراث الوجود ، ولا الحشرة المقدسة حشرة تدب دبيبها البطىء الا لأنها تحمل الخليقة .. لا جرم كنت بذلك فى لغة الاجتماع معنى من معانى الضلالة !

قالت : أتحسب أنك أعييتنى فى مأخذ الحجج واستنباط البراهين ؟

قلت : فماذا !

قالت : انى أعد الزواج أسرا واستعبادا ، وقد بلغت من العلم مبلغا لا أرى فيه أن تكون حريتي محدودة بسلطة رجل بين كلمتى لا ونعم ، فآثرت أن أتخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه ، وعرفته لأتقيه على نفسى ، واتقيته لأبتلى به ولأصرفه فى منافعى ، فليس لى فى معرفة الاجتماع زوج ولكن لى الحب ، وليس لى فيه أهل ولكن لى الجمال .

قلت : أفلا يتسلط على حريتك الدينار والدرهم ؟ واذا أنت بقيت للجمال فهل الجمال سيبقى لك ؟ واذا كانت لك مدة فى الحب فهل هو خالد عليك ؟ ألا ترين أنك تزرعين فى أيام الحب بذور أيام الحسرة ، وأنك متى كبرت عن سن المرآة (١) .. فستنتهين لا محالة الى أمد من العمر يخيم عليك فى مظلمة كالقبر لا نهار فيه ولا ليل ؟ وهل أنت من المجتمع الانسانى الا مقام الصبى من أهله ، اذ لا مذهب لك من دونه ولا غناء فى نفسه الا به ؟ أفترين للصبى أن يتفلت من نظام أهله ويتحلل من آدابهم ثم لا تكون وسيلته الى ذلك الا أن ينقلب لصا بيته بيوت الناس جميعا ، فليس له فى الاجتماع مال ولكن له السرقة .. وليس له فيه أهل ولكن له الحيلة .. بذلك ولا جرم كنت فى لغة هذا الاجتماع معنى من معانى السـخرية والمقت !

قالت : فأنا فى الاجتماع تعاسة ، وبهيمة ، ورذيلة ، وفقر ، وضلالة ، وسخرية ، ولكن ألست ترى هذه الصفات بعينها فى كل الناس على بعض التفاوت فى مقاديرها والتنوع فى أشـكالها والاختلاف فى أسبابها .

وهل الرجل الفاجر الا كالمرأة الفاجرة ؟

قلت : لقد فجر من الرجال من لا تحصيهم الملايين فهل علمت أن فاجرا منهم حمل تسعة أشهر ووضع ؟ ألا ترين أن الطبيعة

---

(١) كناية عن زمن الجمال .

جعلت لكل حكما وهيأت لكل موضعا ؟ وهل سواء فى طبيعة الألم وخطره وعاقبته على الحياة أن يكون الدمل على ظاهر الجلد حيث يتلذع على نفسه ويرى ويحد ، وأن يكون فى باطن الجوف حيث يخشى منه على غيره أكثر مما يخاف على موضعه ؟

قالت : فكأن الرجل عندك أطهر فجورا من المرأة ؟

قلت : بل هو هى فى اللعنة والسقوط ، والنعل أخت النعل ، واثنتاهما على طراق واحد ، ولكنه ان يكن أعقل من المرأة بفكره فهى أعقل منه بحواسها ، وان يكن أقدر فى قوته فهى أقدر فى عواطفها وان يكن فى البلية عود الثقاب فهى بعد الحريق كله . ولذا كان من الطبيعى أن تحاط المرأة فى الاعتبار بالمعانى الاجتماعية الكبرى ، اذ كانت هى الغرض الذى تمتثله تلك القسى الرامية (١) . فهى فى معنى الكمال الأصل ، لأنها الأمومة ، وهى فى العفة الأصل ، لأنها الزوجية ، وهى فى الحياء الأصل ، لأنها العرض ، وكذلك هى الأصل فى المعركة الجنسية ، لأنها المقاومة والمدافعة للرجل ، والأصل الفضيلة الانسانية ، لأنها المنشأ والمربى للطفل ، والأصل فى الشرف الاجتماعى ، لأنها المثال الأدبى للجميع ، ومن ثم كان سقوطها سقوطا لهذه المعانى كلها ، فهو تهدم الأساس لا الحائط ، وفساد الجذع لا الفرع وعلة نفس الاجتماع لا علة جسمه .

هيهات هيهات .. فلن تشعر المرأة الساقطة الا شعور من فقدت نفسها التى كانت نفسها وبدلت أخرى لا تلائمها فهى أبدا هائمة وراء نفسها الأولى تبحث عنها ولا تنساها لأن ذلك الأصل الطبيعى لا يزال يناجيها فى قلبها بلغة الأمومة والزوجية والحياء والفضيلة ، وما نفسها الشريفة الا جواب هذه اللغة وهى ليست فيها ، فكأنها تحمل على حياتها أربع جرائم فى جريمة ، هى أشقى النساء ، ترى فى ذات عقلها البرهان العقلى على انها امرأة ساقطة !

---

(١) أى ترميه وتستهدفه وتسدد اليه .

فتغرغرت عيناها بندى رقيق من الدمع وقالت : لما كنت فتاة ...

فقطعت عليها الكلام وقلت : فى تلك الفتاة كل البراهين فسليها ، انها هى نفسك الهاربة منك !

فوجمت هنيهة لهذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهمالا ، وجاءها الدمع الطاهر يجرى من أقصى الطفولة ، فخالطنى بثها وحزنها كأن دموعها تسقط على مواقع من نفسى !

اقلت : أتأذنين فى كلمة ؟

قالت : بل أسألك أن تتكلم ، فان مدامعى هذه عرضت لى كالمطرة السانحة فى حميم القيظ من صميم الصيف على أرض مغبرة مقشعرة تثور سخطا على كل قدم تطؤها ، وان فكرى ليكلمنى الساعة بلسانك كما يدوى الناقوس بصوته العالى الرنان بعد أن كان هذا الناقوس مختنقا فى بما يطيف به من الضغط ، فكان لا يدق الا دقات مصمتة لا رنين فيها كأنه ناقوس من الخشب !

آه .. لقد كنت كالغدير الصافى ، لا يعرف ماؤه الا وجه السماء وضوء القمرين وأخيلة النجوم وظلال الشجر والنبات ، فأصبحت كالماء الذى كثرت واردته من البهائم ، فهى تختبطه بأرجلها وتضيف الى وحوله وحولها ، ولا تستعذبه الا أن تغشى أعلاه بطبقة من أسفله ، وكلما تراءت صورها فى كدورة الماء حسبت ذلك عشقا من الماء لصورها البهيمية ، ولا تعلم انه يلعنها باظهار بهيميتها لأعينها لو أنها تعقل أو تعى !

أيحسبون أن قلب المرأة حين يشترى بالمال يكون أطهر من خرقة قذرة تتناولها يد أقذر منها ، أو أثمن من فتات مائدة يترك لحيوان أعجم ؟

الا أن قلب المرأة لا يباع أبدا ، وانما هى حين تبيعهم تبيعهم معدتها باسم القلب .. انك ان لم تأخذ القلب هبة ممن تحبها فما أنت من حبها فى (خذ) ولكن فى (هات) واخواتها .

يحسب النـــاس انه لا تفرط امرأة فى الحب ما تفرط المرأة الساقطة ، وما علموا أنها لا تجد الرجل فتجد الحب !

انما الرجال فى عين هذه المرأة رجال مصـــنوعون ، فهى معهم امرأة مصنوعة ، يملك كل رجل اغضابها لأن صـــناعتها ارضاء كل رجل ، ولعل هذا من رحمة الله بها ، فان أكبر شقائها أن تجمع الأقدار بينها وبين رجل تحبه وتستهيم به ، اذ تألم لذلك ألما خاصا فيه تهكم الرذيلة والفضيلة معا . ان هذا الرجل هو البطل الفذ الذى يكون فى قدرته أن يرجع لها ذلك العالم الذى اطرحها ونبذها ، فهو عندها يغمر الناس أجمعين ، ولكنها قلما وجدته الا لتعرف به حقيقة عارها . واذا قدر للأعمى أن يبصر ساعة واحدة ثم يرتد الى ظلامه فما أبصر ولكن تضاعف له العمى !

المرأة الساقطة يائسة من البعولة وذلك عقاب حياتها ، ثم هى لا تندفع الا فى الطريقة التى تكرهها ، وذلك عقاب نفسها ، فالله أرحم من أن يزيدها بلاء الحب الذى هو عقاب شرفها وفضيلتها ، فان ابتليت به فقليلا ما يتفق ذلك ، حتى ان الساقطة العاشقة عشقا صحيحا وتبقى ساقطة أندر وجودا من البغى التائبة توبة صحيحة وتبقى بغيا !

يا عجبا لضمير المرأة ! يضل فى ليـــل دامس من ذنوبها ثم تلمع له دمعة طاهرة فى عينيها فتكون كنجمة القطب ، يعرف بها كيف يتجه وكيف يهتدى وكيف يكون ضــــلاله . وكأن الله ما سلط الدموع على النساء وجعلها طبيعية فيهن الا لتكون هذه الدموع ذريعة من ذرائع الحياة الانسانية تحفظ الرقة فى مثال

الرقة ، كما جعل البحار فى الأرض وسيلة من وسائل الحيـــاة عليها (١) تحفظ الروح والنشاط لها !

ثم قلت : كانت المرأة نصف الانسانية فصارت ربعها .

قالت : وكيف .

قلت : ألا ترينها انقسمت فى هذه المدينة الى قسمين متناقضين الزوجة وال ..

قالت : حسبك ، خذ فى غير هذا فقـــد أبثثتك ذات نفسى وما ينفعك ولا ينفعنى أن تنقض السور الذى أقمته حول حقيقتى ، فان كل قوى الكون عاجزة عن ارجاع ورقة واحدة انتثرت من زهرتها !

ثم وثبت الى البيانة (٢) ، فصدحت عليها بلحن من ألحانها كأن صرخة من ضميرها صاعدة الى عرش الله فى صوت الانسانية الباكى !

ثم ابتسمت وسلمت ، فانصرفت وكأنى ما تكلمت ولا تكلمت وبقيت الأقدار مكانها فما تأخرت ولا تقدمت .

* * *

ليس على الهاوية أرض تغطيها ، فهل تغطيها الفلسفة ؟ وقد خسف بها قلبها فى الأرض ، فهل تسويها الحجج والمعاذير ؟ ولو كانت الحصباء فيها بين لؤلؤة وزمردة وياقوتة ، فهل من يدق عنقه فى الهاوية ليموت على أرض من الجوهر ؟ الهاوية فى الطبيعة ، والساقطة فى الانسانية ــ كلتاهما أرض كالمرأة أو امرأة كالأرض ، وكذلك يخلق الطيب والخبيث « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض .. » .

---

(١) لولا الماء الملح فى هذه البحار على الأرض لتعفن جوها .

(٢) البيانو .

فهرس

فهرس



صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد واف
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى

اسم الكتاب	المؤلف
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة أسماعيل الكاشف
١٨ ـ الاصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الرهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار

اسم الكتاب	المؤلف
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الايوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق ...	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الاشرف قانصوه الغورى ...	د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الافغانى	عبد الرحمن الرافعى

اسم الكتاب	المؤلف
٦٢ ـ الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . أنور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ـ موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ ـ أبو بكر الطرطوشى	د . جمال الدين الشيال
٧٥ ـ يونس بن حبيب	د . حسين نصار
٧٦ ـ صقر قريش	عباده كحيلة
٧٧ ـ البيرونى	د . محمد جمال الفندى د . امام ابراهيم أحمد
٧٨ ـ عبد الكريم الخطابى	د . جلال يحيى
٧٩ ـ أسامة بن منقذ	د . أحمد كمال زكى
٨٠ ـ محيى الدين بن العربى	عبد الحفيظ فرغلى
٨١ ـ مصطفى صادق الرافعى ...	د . كمال نشأت